# الشِّرْكُ

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

عبد المنعم مصطفى حليمة

أبو بصير الطرطوسي

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة:

### بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران:**102**.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ النساء: **1**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ الأحزاب: **70-71**.

أما بعد:

فإن أصدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ محدثَةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار. وبعد:

لا يصح إيمان، ولا تصح عبادة، من دون البراء من الشرك وأهله؛ كل الشرك؛ الظاهر منه والباطن.

لا منجاة من النار، ولا دخول إلى الجنة، إلا باجتناب الشّرك؛ كل الشرك؛ الظاهر منه والباطن.

الشرك ظلمٌ عظيم؛ بحقِّ الخالق، والمخلوق ..

لا يكفي في الدعوة إلى الله تعالى أن يقتصر الخطاب الدعوي على جانب ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ﴾ من دون أن نشير بوضوح إلى ﴿وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ النحل: 36. والذي يعني الشرك وجميع متعلقاته.

لا يجوز في الخطاب الدعوي أن نجتزئ الخطاب، ونقف عند قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ؛ فنطيل في الوقوف، والشرح، والبيان، والوعظ، والترغيب، والترهيب، وكأنه هو التوحيد والدين كله، فإذا مررنا على قوله تعالى: ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ النساء: 36. كتمناه، وأجملنا في الخطاب والبيان، وتلجلج الخطاب، وتعثَّرت الكلمات في الحلقوم، أو أتممنا تلاوة الآية من قبيل التبرك بتلاوتها، وحسب!

لا يغيظ المشركين ــ كل المشركين ــ اقتصار الدعوة إلى عبادة الله تعالى، والحديث عن عبادة الله، كما يغيظهم اجتناب الشرك، وتعييبه، وتسخيفه، والتحذير منه، ومن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله .. لذا ترى كثيراً من الدعاة المعاصرين ــ في

مجالس وعظهم ــ يتهيّبون من الحديث عن الشرك، والتحذير منه ومن مخاطره .. ولو تكلم عن الشرك؛ تكلم عن شرك لا وجود له في المجتمع الذي يعيش فيه أو في واقعه؛ تكلم عن عبادة الأصنام، وعبادة الشمس، والكواكب، وعبادة الأحجار والأشجار .. بينما هناك طواغيت وفراعنة من لحم ودم، يعيشون بين أظهرنا، ويُعبدون من دون الله في صور شتى، لا يُشار إليهم مُطلقاً، لا تصريحاً ولا تلميحاً، وهذا يتنافى مع الأمانة الملقاة على العلماء ورثة الأنبياء، وهو من كتمان العلم الذي حذر الله تعالى منه، ومن فاعله، ورتب عليه الوعيد الشديد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ البقرة: 159. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: 174.

الشرك؛ منه الظاهر الصريح الواضح، الذي لا يخفى على العوام، ومنه الدقيق الخفي والمتجدد، الذي قد يخفى على الخواص، فضلاً عن العوام .. والشيطان في تحديثٍ مستمر للشرك، ليبقى فريق من الناس على جهالة به، وبما يحدثه من الصور الجديدة للشرك؛ فيقعوا في شباكه وهم لا يعلمون، وإلى أن يكتشفوه، ويوجد من العلماء من يحذرهم منه، يكون الشيطانُ قد أحدث شركاً متطوراً جديداً آخر، وأنزل إلى الأسواق

آخر إبداعاته في الشرك، وآخر نسخة متطورة من الشرك، تتصف بمزيد من المناعة والغموض والتعقيد .. وهذا يستدعي منا مزيداً من الحذر والقلق، والمتابعة، والتفقه في الشرك وضروبه .. ومزيداً من الدعاء واللجوء إلى الله تعالى أن يجنبنا الشرك، ويحفظنا منه، وأن يفقهنا به.

لذا فقد عزَمنا ــ بإذن الله تعالى ومشيئته وتوفيقه ــ على أن نسلط الضوء في هذا البحث الهام على الشرك؛ بجميع أنواعه، وأقسامه، وتفريعاته، ما جلَّ منه وما دق، الظاهر منه والباطن، العام منه والخاص، وكل ما يتعلق به من مسائل، وما يترتب عليه من أحكام في الدنيا والآخرة؛ ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من يحيى على بينة.

وقد أسميت هذا الكتاب "الشرك"؛ وهو كتاب يستحق أن يُدرّس، ويُعمّم على طلبة العلم، ومدارسهم الشرعية، وغيرها .. سائلين الله تعالى التوفيق، والسداد، والقبول، وأن يجعل من هذا العمل مفتاح خير، مغلاق شر .. إنه تعالى سميع قريب مجيب، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد المنعم مصطفى حليمة — 1442/1/17 هـ

"أبو بصير الطرطوسي" — 2020/9/5

www.abubaseer.bizland.com

www.tartosi.blogspot.com

معنى الشّرك: أن تجعَل لله ندَّاً وشريكاً في أي صفةٍ من صفاته، أو خاصيّة هي من خصوصياته وحده؛ فتصرف ما هو من صفات وخصوصيات الله تعالى وحده لغير الله، وكذلك أن تصرَف العبادة أو أي شيء مما يدخل في معنى العِبادة لغير الله تعالى، فتعبد معه أو من دونه آلهةً أخرى.

ويُقال كذلك: الشرك؛ أن تجعل لله ندَّاً وشريكاً في الخلق، والملك، والرزق، والتدبير؛ وهو ما يُسمَّى بشرك الربوبية، كذلك أن تجعلَ لله نداً وشريكاً في العِبادة؛ وهو ما يُسمّى بشرك الألوهية، وكذلك أن تجعل لله تعالى نداً وشريكاً في أسمائه وصفاته؛ وهو ما يُسمَّى بشركِ الأسماء والصّفات.

وفي الحديث، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رجل: يا رسول الله! أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: "أن تدعو مع الله نِدَّاً وهو خلقَك" متفق عليه. وقوله "أن تدعو مع الله نِداً"؛ أي نداً في الربوبية، أو الألوهيَّة، أو الأسماء والصفات.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ الإخلاص: 4. أي لم يكن له ندّاً يُكافئه، أو يُشاركه في اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو خاصية من خصائصه سبحانه تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ للّهِ أَندَاداً﴾ في الألوهية أو الربوبية، أو في شيئ من أسمائه وصفاته، وخصائصه ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ إبراهيم: 30.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ للّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ الزمر: 8. قال ابن تيمية في الفتاوى 1/ 88: "من جعل لله نداً من خلقه فيما يستحقه عزَّ وجل من الإلهية والربوبيّة، فقد كفر بإجماع الأمّة" ا- هـ.

والشرك ــ كما تقدم ــ منه ما يكون في الربوبيّة، ومنه ما يكون في الألوهية، ومنه ما يكون في الأسماء والصّفات.

الشركُ في الرُّبوبيّة: هو الاعتقاد بأن المخلوق ــ أيّاً كان هذا المخلوق ــ له سلطة أو قدرة ذاتية في الخلقِ والإيجاد من عدم، وفي تدبير شؤون الكون والمخلوقات، ورعايتها، وتلبية حاجياتها، وأن الرزق، والنفع والضر، والخير والشر، والداء والدواء، والشفاء، والتأثير بالأشياء والتصرف بها، بيده من دون الله .. فيُلجَأ إليه ــ بسبب هذا الاعتقاد الفاسد ــ لدفع ضرٍّ، أو جلب نفعٍ .. وهذا شرك أكبر .. وهو موجود ومنتشر بين جهلة العوام، وعند المستفيدين الذين يقتاتون بالدين من الكهنة، والأحبار والرهبان .. لكن لعجز الآلهة المزعومة المكذوبة ــ والتي قد تكون من حجر أو من لحم ودم، أو

قبر، أو من شياطين الجن، أو غير ذلك ــ عن فعل شيء مما تقدم .. وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم .. وأنهم أعجز وأضعف من أن يخلقوا ذُبابة واحدة أو جناح ذُبابة .. لا يجرؤ أحدٌ أن ينسب لنفسه خصائص الربوبية من دون الله .. أو يزعم أنه قادر على أن يخلق شيئاً .. ولو فعل لظهر عجزه، وكذب ادعاؤه، وجعل من نفسه عرضةً للانتقاص والاستهزاء، والتهكم، كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الروم: 40. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الحج: 73. أي العابد والمعبود. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الرعد: 16. وقال تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لقمان:11. والمشركون ــ على مدار الأزمان ــ يُدركون هذه الحقيقة الساطعة، لا يستطيعون أن ينكروها .. يُسَلّمون بها صاغرين،

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ الزمر: 38. فإذا ما سألتهم: إذاً لماذا تصرفون إليهم العبادة من دون الله .. وهم بهذا العجز، والضعف .. وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟!

لأجابوك جوابهم المشترك، والموحَّد والمكرر على ألسنة جميع المشركين، وعبر جميع الأزمنة والأمكنة: هؤلاء لهم منزلة عند الله .. هؤلاء شفعاؤنا وواسطتنا عند الله .. يقربوننا إلى الله زُلفى .. لأجل ذلك نشركهم في العِبادة، ونتوجه إليهم بالطلب والدعاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِّ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِّ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَّ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يونس: 18. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الزمر:3.

ولَّما تجرَّأ بعض الطواغيت والفراعنة عبر التاريخ على ادعاء الربوبية؛ فقال الطاغية النمرود لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ﴾ البقرة: 258. وقال فرعون موسى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات: 24. ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الزخرف: 51. أذلهما الله تعالى، وجعل منهما عبرة لجميع

من يأتي بعدهما من الطغاة الظالمين، وعرضة لاستخفاف وتهكم الأجيال التالية، وإلى يوم القيامة؛ فأمات الأول ببعوضة دخلت من أنفه إلى دماغه، وكان علاجه الوحيد أن يُضرب على رأسه؛ لتهدأ البعوضة عن الحركة، وظل يُضرَب على رأسه إلى أن مات ذليلاً مُهاناً، فعُوقب من جنس ادعائه الكاذب؛ فإذا كان يحيي ويُميت؛ فعلامَ لم ينقذ نفسه من أضعف وأضأل مخلوقات الله، والتي كانت سبباً في موته وإذلاله. وأما الآخر فرعون موسى؛ فأماته الله غرَقاً في الأنهار التي زعم أنها له من دون الله .. ثم نجّاه ببدنه ليكون آية وعظة لمن يأتي من بعده! [1] .

الشركُ في الألوهيّة: وهو الشرك في العِبادة، وهو أوسع انتشاراً من سابقه بكثير، وأكثر حضوراً في واقع وحياة الناس، ومواجهته وأطر الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، كانت الغاية الأساس من إرسال الرسل .. وصور هذا الشرك، متعددة، ومتنوعة، وهي في تحديث وتجديد، وتطور مستمر .. وهو ما سنشير إليه ــ بإذن الله تعالى ــ بشيء من التفصيل، عند الحديث عن أنواع وصور الشرك.

---

[1] عند تتبع مفردات القرآن الكريم نجد أن كلمتي " البحر واليم"، تطلقان على البحر المالح، والنهر العذب الضخم والعميق .. والراجح أن المراد من البحر أو اليمّ الذي أغرق الله فيه فرعون وجنده، هو نهر النيل، والله تعالى أعلم.

**الاستدلالُ ببطلان الشّرك في الربوبيّة على بطلان الشّرك في الألوهيّة**: لما كان غالبُ المشركين لا يُجادلون في بطلان الشرك في الربوبية، ويقرون بأن الله تعالى هو الخالق، الرازق، المحيي والمميت، والمدبر، والمتصرف بهذا الكون وما فيه وفق مشيئته وحكمته، لا رادّ لحكمه ومشيئته .. وأن ما سواه أعجز من أن يخلق بعوضة، وما دون ذلك .. استدل عليهم القرآن الكريم بهذا الإقرار والخضوع منهم، على وجوب الإقرار بأن المعبود بحق هو الله تعالى وحده .. فكما أن الله تعالى لا يقبل الشرك في الربوبية، لا يقبل الشرك في الألوهية .. وكما تسلّمون وتقرون بتوحيد الربوبية، يجب أن تقروا وتسلموا بتوحيد الألوهية؛ فالذي له الخلق، هو المعبود، والمطاع، الذي له الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ الزمر:**38**. فاستدل على إقرارهم بالربوبية، وأن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، على بطلان توجههم بالعبادة والدعاء إلى من لا يخلق، ولا يقدر على أن يكشف عنهم ضراً، ولا أن يمنع عنهم رحمة وخيراً!

ونحو ذلك، قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

البقرة:22. وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ؛ أي أمألوه ومعبود مع الله، وهو الذي ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ، ومن تعبدون من دون ــ أو مع ــ الله، لا يقدرون على أن يفعلوا شيئاً من ذلك، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ النمل: 60. أي يشركون؛ فيعدلون عن عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق. ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النمل: 61-63. وغيرها كثير من الآيات القرآنية التي تستدل ببطلان الشرك في الربوبية على بطلان الشرك في الألوهية، والاستدلال بتوحيد الربوبيّة على توحيد الألوهية .. وهذا أسلوب رباني قرآني عظيم، لا ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن يغفلوا عنه وهم يدعون إلى الله.

**الشرك في الأسماء والصّفات**: هذا النوع من الشرك، ينقسم إلى قسمين: قسم متعلق بالنفي؛ ينفون عن الله تعالى الأسماء والصفات التي أثبتها الله سبحانه وتعالى

لنفسه، وأثبتها له أنبياؤه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبخاصة إن كان هذا النفي يقتضي في المقابل صفة نقص وعجز، كمن ينفي عن الله تعالى صفة العِلم، وأنه لا يعلم بكل شيء، والذي من مقتضاه، ومقتضى المخالفة أن يصفه بالجهل، أو ينفي عنه صفة القدرة، وأنه ليس قادراً على كل شيء، والذي من مقتضاه، ومقتضى المخالفة أن يصفه بالعجز والضعف .. وغير ذلك من النفي الذي يقتضي في المقابل صفة نقص، وضعف، وعجز، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

وقسم آخر متعلق بالإثبات، فيثبتون لله تعالى الصفات التي تجعله في صف المخلوق، فيساوونه بالمخلوق، كأن يثبتوا لله الولد، وما يحتاجه ويقترفه المخلوق، أو يثبتون للمخلوق الأسماء والصفات التي تجعله في مصفّ الخالق، وترفعه إلى مستوى الألوهية والربوبية، كأن يُنسب لمخلوق علم الغيب، أو أنه فوق المساءلة؛ لا يُسأل عما يفعل، أو أن له الحكم من دون أو مع الله .. ونحو ذلك من الصفات التي هي من خصوصيات وصفات الله تعالى وحده، وهذا النوع من الشرك؛ تشبيه المخلوق بالخالق أوسع انتشاراً، وأكثر حضوراً من سابقه؛ تشبيه الخالق بالمخلوق، لذا سنشير إليه ــ إن شاء الله ــ بشيء من التفصيل والتوسع عند الحديث عن أنواع وصور الشرك.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ الشورى: 11. هذا التنزيه والنفي يتضمن النَّفيين معاً: نفي تشبيه الخالق بالمخلوق، ونفي تشبيه المخلوق بالخالق.

وقال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف: 180. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ للّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنعام: 100. ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الزخرف: 82. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ الصافات: 180-181. فنزّه الربُّ نفسه عن كل وصفٍ يصفه به الأنس أو الجن؛ إلا المرسلون فأثنى عليهم، وعلى طريقتهم، ورضي عنهم، وعن وصفهم له سبحانه وتعالى؛ لأنهم يبلغون عن ربهم، وما ينطقون عن الهوى، ولا يقولون في الله تعالى قولاً إلا فيما يوحي الله إليهم، ويُنَزَّل عليهم فيه علماً.

معنى الطاغوت: الطاغوت؛ لغة من الطغيان، والبغي، ومجاوزة الحد، واصطلاحاً: هو كل مَن تقمَّص صفة أو خاصيَّة من خصوصيات الله تعالى وحده، وادّعاها لنفسه، أو رضي لنفسه أن يُعبد من دون الله تعالى، ولو في وجه من أوجه العبادة. وقَيدُ الرضا؛ لنخرج الأنبياء، والملائكة، والصالحين ــ من صفة ومعنى الطاغوت ــ

الذين يُعبَدون من قبل جهلة الناس، وهم منهم ومن عبادتهم وشركهم برآء، وهم لهم ولشركهم كارهون، ومبغضون، ومحذّرون، وفي الحديث الصحيح: "يجمعُ اللهُ الناسَ يوم القيامةِ، فيقول: مَن كان يعبدُ شيئاً فليتبَعْهُ؛ فيتْبعُ من كان يعبدُ الشمسَ الشّمسَ، ويتبع مَن كان يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتبَعُ مَن كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ" متفق عليه. ومن الفروق بين الطاغوت والطّاغية: أن كل طاغوت طاغية، ولا يلزم أن يكون كل طاغية، طاغوت، وأنّ كل طاغوت ــ من الإنس والجن ــ كافر، ولا يلزم أن يكون كل طاغية كافراً.

قال ابن تيمية في الفتاوى 28/ 200: "الطاغوت فعلوت من الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد؛ وهو الظلم والبغي، فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك طاغوت، ولهذا سمّى النبي صلى الله عليه وسلم الأصنامَ طواغيت، والمُطاع في معصية الله، والمُطاعُ في اتباعِ غير الهُدى ودين الحق سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله، أو مُطاعاً أمرهُ المخالف لأمر الله هو طاغوت، ولهذا سمى من تُحوكِم إليه من حاكمَ بغير كتاب الله طاغوت، وسمَّى فرعون وعاداً طُغاة" ا- هـ.

وقال ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين 1/ 50: الطاغوت كل ماتجاوز بـه العبـد حده من معبود أو مَتبوع أو مُطـاع؛ فطـاغوت كـل قـوم مـن يتحـاكمون إليـه غـير الله

ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونـه فـيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيـت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحـاكم إلى الله وإلى الرسـول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته ا- هـ.

صِفةُ الكفر بالطاغوت: صفة الكفر بالطاغوت تكـون: بـالقول، والاعتقـاد، والعمل معاً، لا يُجزئ شيء منها عن الآخر؛ فمن كفر بالطاغوت بلسانه، ولم يُضـمر لـه الكفر والعداوة والبغضاء في قلبه، لا ينفعه الكفـر باللسـان، ويكـون كفـره بالطـاغوت باللسان أشبه بكفر المنافقين بالطاغوت، الذين يضمرون في قلوبهم خلاف مـا يُظهـرون، ومن كفر بالطاغوت بلسانه، وقلبه، لكنه لم يعتزله، ولم يعتزل العمل معه، وقاتـل دونـه، ومعه ضد الإسلام والمسلمين، لغرضٍ من أغراض الدنيا .. فهذا أيضاً لا يكون قد حقق الكفر بالطاغوت، وواقعه يكذب زعمه باللسان؛ إذ لا بد من أن يكون الكفر بالطاغوت كما تقدم: بالقول، والاعتقاد، والعمل، ولا يُجزئ إحداها عن الآخر.

معنى العِبادة: العبادة لغة: تعني التذلل، والخضوع، والانقياد، ومنه يُقال الطريق المُعبَّد؛ إذا كان مذللاً بكثرة الوطءِ. واصطلاحاً: "العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة". وهي بهذا التعريف

الجامع تشمل جميع المساحة الزمانية والمكانية، وجميع الأعمال القلبية والبدنية التي يحبها الله تعالى ويرضاها .. فالعبادة تستغرق من الإنسان جميع أنفاسه وحركاته وسكناته، من المهد إلى اللحد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام: 162-163. فكما لا يجوز أن يُصرَف شيئ من الأعمال لغير الله، كذلك لا يجوز أن يُصرَف شيئ من الأوقات لغير الله .. والعبادة بهذا المعنى والشمول تحوّل المباحات والعادات، مع يقظة النية إلى عبادات وطاعات؛ بما في ذلك الطعام، والشراب، واللباس، والنكاح، والرياضة البدنية، والترفيه عن النفس، واللهو مع الأهل والأبناء، وغير ذلك.

فالإنسان لم يُخلَق لشيئ إلا لِعبادة الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ ؛ لشيء أو لغاية ﴿إِلَّا﴾ ؛ أداة استثناء أتت بعد نفي لتستثني من النفي غاية واحدة فقط؛ وهي ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: 56. أي ليخصوا الله تعالى وحده بالعبادة .. وبالتالي لا ينبغي ولا يجوز للإنسان أن يصرف شيئاً من وقته من غير عبادة.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ ؛ أي لم يُؤمَروا بشيء ﴿إِلَّا﴾ ؛ أداة استثناء أتت بعد نفي؛ تفيد الحصر والقصر: ﴿لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة: 31. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ البينة: 5. وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: 5. أي نخصك وحدك بالعبادة، كما نخصك وحدك بالاستعانة على العِبادة.

فالله تعالى له حق على عِباده؛ وحقه سبحانه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما في الحديث، عن معاذ بن جبل، قال: قال النبي ﷺ: "يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال: "أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟" قال: الله ورسولُه أعلم. قال: "أن لا يعذبهم" متفق عليه. ومن لا يعذبه يُدخله جنَّته؛ فالمنازل يوم القيامة منزلان لا ثالث لهما: إما جنة وإما نار.

التوحيد يقوم على ركنين: لا يصح التوحيد، ولا يُقبل إلا بهما معاً، الركن الأول: هو النفي والبراء والانخلاع من الشرك وأهله، والكفر بالطواغيت الآلهة التي تُعبد من دون الله. والركن الثاني: هو الإثبات بأن المعبود بحق الذي يجب أن تُصرف له العبادة، هو الله تعالى وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَحْدَهُ﴾ الممتحنة: 4. فقدم البراء من العابدين المشركين على البراء من المعبودين من دون الله، لبيان أن البراء من

المعبودين من دون الله، لا يكتمل ولا يصح إلا بعد البراء من العابدين المشركين الذين عبدوا آلهة من دون الله.

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ النساء: 36. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهّ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ الرعد: 36. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ الجن: 20. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهَّ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الزمر: 17. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة: 31. وغيرها من الآيات التي تتضمن ذكر ركني التوحيد معاً: البراء من الشرك والمشركين، والآلهة التي تُعبد من دون الله، وإثبات أن المعبود بحق؛ الذي يجب أن تُصرَف له كل ما يدخل في معنى ومسمى العبادة، هو الله تعالى وحده.

وفي الحديث أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: وما آياتُ الإسلامِ؟ أي ما علاماته وإماراته، قال صلى الله عليه وسلم: "أن تقولَ أسلَمتُ وجْهي إلى اللهِّ، وتخلَّيتُ، وتقيمَ الصَّلاةَ، وتؤتيَ الزَّكاة"[2]. وقوله "وتخلَّيتُ"؛ أي انخلعتُ وتبرأت من الشرك، وأهله، وما يعبدون من دون الله.

---

[2] صحيح سنن النسائي: 2435.

ولما وفَدَ وفدُ ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم ليُسلموا ويبايعوه، سألوه أن يدع لهم "اللات" ــ وهو صنم كانوا يعبدونه من دون الله ــ لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مُسمّى.

**التوحيد بركنيه دعوة جميع الأنبياء والرسل**: من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكل نبيٍّ كان يبتدئ قومَه، ومَن أرسِل إليهم بقوله: أن اعبدوا الله واجتنبوا الشرك والطاغوت، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف: 59. وقال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف: 65. وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف: 73. وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف: 85. وبعد أن خصَّص عمَّم بذِكْرِ جميع الأنبياء والرسل من دون استثناء لأحدٍ منهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: 25. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ﴾ النحل: 36. فجميع الأنبياء والرسل، من دون استثناء لأحدٍ منهم، كانت دعوتهم الأساس ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ . ﴿اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ . وعلى ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة أن يحافظوا على هذا المنهج والشمولية في الدعوة إلى الله، وبخاصة في المواطن التي يكثر فيها الشرك، وعبادة الطاغوت.

شهادةُ التّوحيد تتضمن ركني التوحيد: "لا إله"؛ جانب النفي، والبراء، والانخلاع من الشرك، والكفر بجميع الآلهة "إلَّا"؛ أداة استثناء تفيد الحصر والقصر "الله"؛ فلا نتبرأ منه ولا من عبادته؛ فهو المعبود بحق، الذي نخصّه وحده بالعبادة لا شريك له.

وشهادةُ التّوحيد التي تُنجي صاحبها من النار، وتُدخله الجنة لا بد من أن يُؤتَى بها بهذا المعنى، وهذا المدلول الوارد أعلاه: اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، لا يُجزئ الواحد منها عن الآخر.[3] ﴾ .

العلة في تقديم جانب النفي في شهادة التوحيد: أن العبادة لا تُقبل ولا تصح مع الشرك؛ إذ لا بد أولاً من البراء والانخلاع من الشرك، ثم الشروع في العبادة .. لا يستقيم ولا يصح ولا يجتمع في دين الله عبادة لله، وعبادة الطاغوت .. توحيد وشرك

---

[3] انظر إن شئت كتاب "شروط لا إله إلا الله".

.. كفر وإيمان .. اجتماع الشيء وضده في آنٍ معاً؛ لأن أحدهما يناقض الآخر ويُبطله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِّ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾ البقرة: 256. فقدَّم الكفر بالطاغوت، والبراء من الشرك، على الإيمان بالله .. وهذا الذي يقدم الكفر بالطاغوت، والبراء من الشرك، ثم يأتي بالإيمان والتوحيد؛ فهذا هو الذي يكون قد استمسك حقاً ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾ ؛ أي بشهادة التوحيد؛ لا إله إلا الله.

كذلك في الحديث عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: "لا يَجتَمِعُ الإيمانُ والكُفرُ في قلبِ امرئٍ" [4] . فإذا استقر أحدهما في القلب طرد وأخرج الآخر ولا بد.

أَتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بالحَدِيدِ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِّ أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قالَ: "أَسْلِمْ، ثُمَّ قَاتِلْ"، فأسْلَمَ، ثُمَّ قَاتَلَ، فَقُتِلَ، فَقالَ رَسولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "عَمِلَ قَلِيلًا، وأُجِرَ كَثِيراً" متفق عليه. ولو قاتل فقُتِل قبل أن يُسلم وينطق بشهادة التوحيد؛ والتي تفيد البراء من الشرك والطواغيت، لما انتفع من قتاله في شيء، وقِتلته لا تُكتب له شهادة.

موقف المشركين على مدار التاريخ من شهادة التوحيد: موقف البغض، والكره، والنفور، والعداء الشديد .. لماذا؟!

---

[4] أخرجه ابن وهب في الجامع، السلسلة الصحيحة: 1050.

لأنها تعني البراء والانخلاع من آلهتهم، وأوثانهم، وطواغيتهم .. والكفر بها.

لأنها تعني أن آلهتهم، وأوثانهم، وطواغيتهم، ليست على شيء من الحق، وأنها هي الباطل؛ الذي ليس بعده إلا الضلال.

لأنها تعني تسخيف، وتحطيم الأوثان، والأصنام، والطواغيت التي تُعبَد من دون الله.

لأنها تعني أن المعبود بحق هو الله تعالى وحده، وما سواه فهو الباطل، ولو عُبِد يُعبد بغير حق.

لأنها تعني تجريد الطواغيت الظالمين من نياشين الإلهية، والتمايز، والتفاضل والتعالي على الخلق، وإنزالهم منزلة العبودية، والعبيد لله رب العالمين .. ومساواتهم بغيرهم من الناس.

لأنها تعني أنْ لا كبير على الله .. فالكبير والصغير، والقوي والضعيف، والغني والفقير، والسيد والمسود، والحاكم والمحكوم، والأبيض، والأسود، والأصفر .. كلهم سواسية أمام الله، وفي ميزان وحكم الله .. لا فرق بين أحدٍ وأحد، ولا يفضلُ أحدٌ على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .. وباب التقوى والعمل الصالح مفتوح للجميع.

لأنها تعني الانعتاق، والتحرر من الخوف، والذل، والظلم، والخنوع، والعبودية للعبيد.

لأنها تعني إخراج العِباد من عبادة العِباد إلى عبادة رب العِباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

لأنها تعني أنّ تلقّي القيم، والمفاهيم، والعقائد، والتصورات، والحلال والحرام، كلها يجب أن تكون من مصدرٍ واحدٍ؛ هو رب العالمين، هو الله تعالى وحده لا شريك له، وما يُنزّل على أنبيائه ورسله، من كتب، وأحكام، وتعاليم .. ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ الزخرف: 84.

لهذه الأوجه مجتمعة كانوا يكرهون "لا إله إلا الله"، ويكرهون الدعاة إليها، وينفرون منها، ويقبلون منك أن يسمعوا ــ بصدور منفتحة وعقول متحررة ــ كلَّ شيء إلا "لا إله إلا الله"؛ فهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، لا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الصافات: 35. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ ؛ أي الشّرك ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الزمر:45. ويفرحون. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لقمان: 7. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد: 9. وأعظم وأجل ما أنزل الله شهادة التوحيد "لا إله إلا الله". وقال تعالى:

﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ غافر: 12. وغيرها من الآيات.

وفي الحديث، لَمَّا مَرِضَ أبو طالبٍ دخل عليه رَهْطٌ من قُريشٍ منهم أبو جهلٍ فقالوا : يا أبا طالبٍ ابنُ أخيكَ يَشْتُمُ آلهتَنَا، يقولُ ويقولُ، ويفعلُ ويفعلُ، فأَرْسِلْ إليهِ فانْهَه، قال: فأَرْسَلَ إليهِ أبو طالبٍ وكان قُرْبَ أبي طالبٍ موضعُ رَجُلٍ، فخَشِيَ ــ أي أبو جهل ــ إن دخلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على عَمِّهِ أن يكون أَرَقَّ له عليه؛ فَوَثَبَ فجلسَ في ذلك المجلسِ، فلمَّا دخل النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يجدْ مجلساً إلا عندَ البابِ فجلسَ، فقال أبو طالبٍ: يا ابنَ أَخِي إنَّ قومَك يشكُونَك؛ يزعمونَ أنك تَشْتُمُ آلهتَهم، وتقولُ وتقولُ وتفعلُ وتفعلُ، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا عَمِّ إني إنَّما أُريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ تَدِينُ لهم بها العَرَبُ، وتُؤَدِّي إليهم بها العَجَمُ الجِزْيَةَ"، قالوا: وما هي؟ نعم وأبيكَ عشراً! قال: "لا إلهَ إلا اللهُ"، فقاموا وهم ينفضون ثيابَهم، وهم يقولونَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ص: 5. [5] . فهم على استعدادٍ تامّ أن يُجيبوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى عشر كلمات ومطالب وأكثر؛ لها علاقة بالجانب

---

[5] أخرجه أحمد، وصححه أحمد شاكر في التخريج 5/ 140. وكذلك ابن كثير في إرشاد الفقيه: 2/ 335.

الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو السياسي، أو الأخلاقي، أو الأمن القومي .. أمَّا "لا إله إلا الله" فلا؛ لعلمهم بمدلولاتها ومتطلباتها الآنفة الذكر أعلاه!

من الصور الحديثة لهذا الكره والبغض للتوحيد ــ ولتعلم أن القضية قديمة جديدة ــ جرّب أن تقول مثلاً: أن فلاناً قاتل، ويُقاتلُ، أو قُتِل في سبيل الله وحده .. ثم انظر من حولك من المشركين، والكافرين، والمنافقين، كيف يكرهون منك هذا التعبير وهذا الاطلاق .. وكيف تشمئز قلوبهم، وتكفهر وجوههم منك ومما تقول .. ويصنفونك في عداد المتخلفين، والمتشددين، والمتطرفين الخطرين .. حتى بات كثير من الدعاة والخواص من يتهيب أن يُطلق هذا الاطلاق؛ حتى لا يُصنّف عند المجرمين .. ثم جرّب ــ إن شئت ــ أن تقول: فلانٌ قاتل وقُتِل في سبيل الوطن، والإنسانية، وفي سبيل قومه، أو في سبيل الطاغوت، ونحو ذلك من الاطلاقات .. ثم انظر من حولك من المشركين، والكافرين، والمنافقين، كيف يستبشرون .. ويبشون .. ويسرون بك وبإطلاقاتك .. ويصنفونك في خانة التقدميين المتحررين؟![6] .

---

[6] فإن قيل: ولكن الإسلام قد أمر بالدفاع عن الأوطان، والأعراض، والأموال، والحقوق والحرمات ..؟ أقول: صحيح .. والتعبير الصحيح حينئذٍ أن تقول: من قاتل وقُتِل دون وطنه ــ أي دفاعاً عن وطنه ــ ودون عِرضه ــ أي دفاعاً عن عِرضه ــ ودون ماله، ودون حقوقه وحرماته، ودون

**خطورة الشرك**: تكمن خطورة الشرك من أوجه عدّة:

منها: أنَّ الشِّركَ ظُلمٌ عظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِّ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ النساء: 48. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: 13. لا يعلوه ولا يوازيه ظلم، وهو أشد الذنوب، وأكبر الكبائر، كما في الحديث عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالَ: "أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإشْرَاكُ باللهِّ" البخاري. وعن ابن مسعود: سَأَلْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ اللهِّ؟ قال: "أنْ تَجْعَلَ للهِّ نِدًّا، وهو خَلَقَكَ" البخاري.

الشركُ ظُلمٌ عظيمٌ بحقِّ الله تعالى؛ فالله تعالى هو الخالق المصور المتفضل بالنّعم، فالخلق خلقه، والعباد عباده، وهم من ملكه، وإليه يرجعون، وهو المتفضل على الجميع بالنعم التي لا تُحصى، ولا تتوقّف، والتي منها إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبيان النجدين: طريق الحق، وطريق الباطل .. وكل ما في الكون وما في الأرض من

---

مظلمته في سبيل الله وحده فهو شهيد .. أما التعبير الخاطئ والشركي ــ وهو السائد على ألسنة كثير من الناس ــ أن تقول: فلان قاتل ويُقاتل في سبيل وطنه، وفي سبيل ماله، وعرضه، وفي سبيل مظلمته ونحو ذلك .. فهذا التعبير خاطئ، وشركي، والنبي صلى الله عليه وسلم قد وضح لنا هذا المعنى، فقال: "مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فهوَ شَهيدٌ " صحيح الترمذي: 1421. وقوله " دُونَ "؛ أي دفاعاً.

خصائص، وأشياء، وخير، وجمال سخّره الله للإنسان .. ومع ذلك، وبعد كل ذلك، يأتي الإنسان المشرك، فيقول بلسان الحال، وأحياناً بلسان المقال: الله ليس ربي ولا معبودي .. وليس له حق، ولا حجة علي .. فإلهي ومعبودي من دون الله الشيطان، أو الحجر، أو الشجر، أو البشَر، أو البقر أو غيرها من الحيوانات والحشرات، والمخلوقات التي قد تكون أقل منه قدراً .. وهؤلاء الآلهة لهم كامل الحق عليّ من دون الله، وحجتهم عليّ قائمة من دون حجة الله ... تصوروا هذا المعنى، وتخيلوه .. فستدركون كم أنَّ الشّركَ ظلمٌ عظيم .. وكم هو قبيحٌ ومُقرِف!

قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "قالَ اللهُ تَعَالَى: يَشْتِمُنِي ابنُ آدَمَ، وما يَنْبَغِي له أنْ يَشْتِمَنِي، ويُكَذِّبُنِي وما يَنْبَغِي له، أمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إنَّ لي ولَداً، وأَمَّا تَكْذِيبُهُ، فَقَوْلُهُ: ليسَ يُعِيدُنِي كما بَدَأَنِي" البخاري.

وهو ظلمٌ عظيم بحقِّ الإنسان ذاته؛ فالشرك يُفقِد صاحبه آدميته، وحريته، وعقله، وكرامته، والغاية من وجوده في الحياة، ويجعل منه عبداً تائهاً مملوكاً أسيراً لعبيدٍ ومخاليق قد يكونون أقل منه قدراً وشأناً .. يأخذون منه كل شيء، ولا يُعطونه شيئاً .. والمشرك مهما تشبَّع بالحرية، وتظاهر بها، وزعم أنه "أبو الحرية" ومؤسسها، فواقعه يكذّبه، ويدمغه بالعبودية للعبيد .. ولمخاليق قد يكونون أقل منه قدْراً!

الشركُ تِيهٌ وحَيرة، وضياعٌ، وقَلقٌ، وظلمة في القلب، وضيق في الصدر، وظلمة وكآبةٌ على الوجه، وإغلاق للعقل .. يعطّلُ ويدمّر جميع وسائل التّلقي عن الاستقبال الصحيح، لدى صاحبه المشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ النساء: 116. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج: 31. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: 125. وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ البقرة: 18. أي عن الشرك والكفر. ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: 171. لأن الشرك قد أعطب لديهم وجميع سائل التلقي، وحال بينهم وبين الانتفاع بها لآخرتهم؛ الحياة الأبديّة والحقيقية، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: 179. وما تقدم لا يمنع من أن ينتفعوا بها لأمورهم الدنيوية والمعيشيّة، كما قال تعالى عنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم: 7.

العزة، والكرامة، والحريّة محصورة ومقصورة بتحقيق، وامتثال "لا إله إلا الله"؛ اعتقاداً، وقولاً، وعملاً .. فأسعد الناس بالعزة، والكرامة، والحريّة هم أهل "لا إله إلا

الله"؛ والذي من مقتضاها البراء والانخلاع والتحرر من جميع مظاهر العبودية والتبعية، والخنوع للطواغيت الظالمين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ النساء: 139. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ فاطر: 10. ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المنافقون: 8.

ولما سأل رستم قائد جيش الفرس الصحابي ربعي بن عامر، عن السبب الذي حملهم على غزو بلاد فارس، فكان من جواب ربعي بن عامر له: "لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العِباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".

فإن قيل: ولكن أحياناً .. وفي مراحل متقطعة من الزمن والتاريخ .. نجد أهل "لا إله إلا الله"، أو بعضهم، لا يتمتعون ولا يتصفون بهذه الحرية، والعزة، والكرامة التي ذكرتها عنهم .. ونجد منهم من تعلوه سياط الظالمين، ويقبعون في السجون؟

أقول: هذا سؤال يُجاب عنه من وجهين:

أولهما: أن موطن الحرية، والعزة، والكرامة في القلب، والنفس .. أما الجسد أحياناً قد يكون أسيراً في السجن، أو معلقاً على أعواد المشانق، بينما نفس صاحبه تسمو

في السماء عزيزة حرة كريمة، تأبى وتأنف أن تدخل في عبادة الطاغوت، أو أن تقول له كلمة ذل، واعتذار.

أيهما كان حراً عزيزاً كريماً يوسف الصديق رضي الله عنه الذي مكث في السجن بضع سنين، أم سجّانوه .. إبراهيم عليه السلام الذي أُلقي في النار، أم الطاغية النّمرود .. الأسير الشهيد نبي الله يحيى عليه السلام أم الطاغوت الذي قتله في سجنه .. أيهما كان حراً عزيزاً كريماً الإمام أحمد بن حنبل أم سجَّانوه وجلَّادوه .. سيد قطب الذي أبى أن يخط كلمة اعتذار للطاغية، أم سجَّانوه وجلادوه .. إذا عرفت الجواب، ولا شك أنك قد عرفت الجواب .. عرفت أن تعرض أهل لا إله إلا الله، في مرحلة من مراحل حياتهم، ودعوتهم، وجهادهم إلى نوع شدة وبلاء .. لا يعني بالضرورة أنهم ليسوا أعزاء، ولا أحرارا!

ثانيهما: أن أهل "لا إله إلا الله"، في مرحلة من المراحل، قد ينسون حظاً من الدين، وحظاً من معاني ودلالات، ومتطلبات "لا إله إلا الله"، ويتنكبون عن العمل بلا إله إلا الله، كما تريد منهم لا إله إلا الله .. ويحصل منهم التقصير والإهمال في الأخذ بأسباب النصر، والعزة، والحرية، والكرامة .. فيُصابون حينئذٍ ببعض الذلة، والهوان، على قدر الحظ الذي نسوه من الدين، ومن لا إله إلا الله .. وحينئذٍ يكون السبب في ذلهم

وهوانهم هو من عند أنفسهم، وبسبب بعدهم عن حقيقة "لا إله إلا الله"، والهبوط في مستوى إيمانهم، وتخلفهم عن الأخذ بأسباب العزة، والنصر، والكرامة، والتمكين التي يريدها الله منهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد:7. مفهوم المخالفة إن لم تنصروا الله كما أمر، وحصل التقصير في نصرتكم لله ولدينه، لا ينصركم الله، ويُصيبكم من البلاء والشدة والهزائم على قد ما تتنكبون من أسباب النصر، ومن حق الله عليكم.

وكذلك، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المائدة: **14**. وهذا وإن كان قد نزل في النّصارى، إلا أن من يفعل فعلهم، ويقع في وزرهم من المسلمين؛ فينسون حظاً من الدين، يُصيبهم ما أصاب النصارى من العذاب والعقاب، فليس لهم كل مرّة، ولنا كل حلوة!

ومنها: أي من خطورة الشرك؛ أنه يمنع من قبول الأعمال، ويُحبط ما سبقه من العمل الصالح: ويُدمره، ويمنع صاحبه من الانتفاع به يوم القيامة، وهذا حكم شامل لجميع من يقع في الشرك، في جميع الأزمنة، وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ

مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر: 65. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام:88. وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾ الفرقان:23. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة: 5.

وفي الحديث، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت يا رسول الله ابن جَدْعَان كان في الجاهلية يَصلُ الرحمَ، ويُطعِمُ المسكين، فهل ذلك نافِعُهُ؟ قال: "لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يومَ الدين" مسلم. أي لا ينفعه يوم القيامة؛ لأنه عاش مشركاً، ومات على الشرك.

فإن قيل: هل يُجزى على حسناته التي عمل بها لله شيئاً ..؟

الجواب: نعم؛ يُجزَى على حسناته مما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا جاء يوم القيامة لم يجد حسنة ينتفع بها، كما في الحديث، عن أنس بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مؤمناً حَسَنةً؛ يُعطِي بها في الدُّنيا، ويَجزِي بها في الآخِرَةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطْعَمُ بحسناتِ ما عَمِلَ بها للهِ في الدُّنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخِرةِ لم تَكُنْ لهُ حسنَةٌ يُجْزَى بها" مسلم. والحديث فيه دلالة أن الكافر يمكن أن يعمل عملاً خالصاً لله،

ويكون كفره أو شركه من جهات أخرى غير هذا العمل .. والخير الذي يتقلب به الكافر في دنياه ويعتاش، كثير منه من هذا القبيل، والله تعالى أعلم.

ومنها: أن الله تعالى لا يغفر الشرك: ويغفر ما دون الشرك ــ وكل ذنب مهما عظم فهو دون الشرك ــ لمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ النساء: 48. فكلُّ ذنبٍ يُذنبه العبد، يُترك لمشيئة الله تعالى؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، عدا الإشراك بالله؛ فإن الله لا يغفره، قال رسولُ الله ﷺ: "قال الله تعالى: من عَلِمَ أني ذُو قدرةٍ على مغفرة الذنوب غفرتُ له ولا أبالي، ما لم يُشرك بي شيئاً" [7].

وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى: يا ابن آدم! مهما عبدتني ورجوتني ولم تُشرك بي شيئاً غفرتُ لك على ما كان منك؛ وإن استقبلتني بملء السماءِ والأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بملئهنَّ من المغفرة، وأغفر لك ولا أبالي" [8].

---

[7] رواه الطبراني، والحاكم، صحيح الجامع الصغير: 4330.

[8] رواه الطبراني، صحيح الجامع الصغير: 4341. وقوله "على ما كان منك"؛ أي على ما كان منك من تقصير، وعملٍ غير صالح.

ما تقدم محمول على الموافاة على الشرك، أمّا من آمن وتاب قبل موته، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ البقرة: 161-162. فعلَّق الوعيد الشديد على الموت على الكفر والشرك، ونحوه قول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ آل عمران: 91. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ النساء: 18. فالتوبة عند الغرغرة والمعاينة، وخروج الروح، لا تقبل، ولا تنفع صاحبها، وكذلك الذين يموتون وهم كفار لا ينفعهم الندم على ما فرطوا بحق أنفسهم. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يونس: 90-91.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ

بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ" مسلم. فعلق الوعيد الشديد؛ وأنهم من أصحاب النار، على الموت وهم على الكفر والشرك، والتكذيب.

فالعبرة بالموافاة وبما يختم به على المرء؛ فالمرء قد يعمل دهراً من عمره بعمل صالح، ثم يتحول فيعمل بعمل طالح، فيموت عليه، فيدخل النار، وقد يعمل دهراً من عمره بعمل طالح، ثم يتحول فيعمل بعمل صالح، فيموت عليه، فيدخل الجنة، كما في الحديث: "عَمِلَ قَلِيلًا، وأُجِرَ كَثِيراً" متفق عليه. وهذا حديث قِيل في رجل عاش حياته مشركاً؛ فأسلم، فقاتل، فقُتِل شهيداً، قبل أن يتمكن من القيام ببقية شعائر وواجبات الإسلام.

قال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ النَّارِ، حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ ــ أي المكتوب والمقدّر في الكتاب ــ فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ، حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّار" البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الرَّجُلَ لَيعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ، وإنَّه لَمكتوبٌ في الكتابِ مِن أهلِ النَّارِ، فإذا كان قبْلَ موتِه تحوَّل فعمِلَ بعمَلِ أهلِ النَّارِ فمات فدخَل النَّارَ،

وإنَّ الرَّجُلَ لَيعمَلُ بعمَلِ أهلِ النَّارِ، وإنَّه لَمكتوبٌ في الكتابِ مِن أهلِ الجنَّةِ، فإذا كان قبْلَ موتِه تحوَّل، فعمِل بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ فمات فدخَلها." [9] .

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تُعْجَبوا بعملِ أحدٍ حتى تنظرُوا بما يُخْتَمُ لهُ، فإن العاملَ يعملُ زمانا من دهرِهِ، بعملٍ صالحٍ لو ماتَ عليه دخلَ الجنةَ، ثم يتَحوّلَ فيعملُ عملا سيئاً، وإن العبدَ ليعملُ زمانا من دهرِهِ بعملٍ سيئ لو ماتَ عليه دخلَ النارَ، ثم يتحّولُ فيعملُ عملا صالحاً، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً استعملهُ قبلَ موتهِ فوفّقَهُ لعملٍ صالحٍ، ثم يقبضهُ عليهِ" [10] .

وهذا يستدعي منّا مزيداً من القلق والانتباه إلى حسن الخاتمة، وأن لا يُغر أو يُعجَب أحدنا بما كان منه من عمل صالح، وأن نسأل الله تعالى دائماً السلامة، والثبات، وحسن الختام، كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر في دعائه: "يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ"، قالَت أمُّ المؤمنين، أمُّ سلمة رضي الله عنها: يا رسولَ اللهِّ

---

[9] رواه أحمد في المسند، وصححه الشيخ شاكر في التخريج.

[10] السلسلة الصحيحة: **1334**.

ما أكثرُ دعاءكَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ؟ قالَ: "يا أمَّ سلمةَ إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللهِّ، فمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ" [11].

كذلك يُقال في حبوط العمل كلياً فإنه معلق بالموافاة، فمن ارتد ومات على الكفر والشرك، فقد حبط عمله، أما إن تاب وأناب، قبل الموت، فعمله الصالح يعود إليه، وينتفع به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: 217. فعلق حبوط العمل بالموت على الكفر.

ومنها: أن مَن مات على الشّرك يُخلّد في نار جهنم أبداً، وعقوبة التخليد في النار ليست لأحدٍ من العُصاة إلا للمشرك الذي يموت على الشرك والكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِّ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ البقرة: 161-162. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُّ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ التوبة: 68. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً﴾ الأحزاب: 64-65. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن

---

[11] صحيح سنن الترمذي: 3522.

يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى﴾ طه: 74. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ فاطر: 36. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: 257. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المائدة: 72. وغيرها كثير من الآيات الدالة على أن عقوبة المشرك الذي يموت على الشرك، الخلود في نار جهنم أبداً، وبئس المصير.

وفي الحديث، عن جابر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "ثنتان موجبتان". قال رجل: يا رسولَ الله ما الموجبتان؟ قال: "من مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يُشرك بالله شيئاً دخل النار" مسلم.

وفي الحديث القدسي: "يا ابنَ آدمَ إنّكَ لو أتيتني بِقُرابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تُشرِكُ بي شيئاً لأتيتُكَ بِقُرابِها مغفرةً" [12].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخلُ الجنَّةَ إلا مؤمنٌ" البخاري. أي موحّد؛ أتى بركني التوحيد الآنفي الذكر، اعتقاداً، وقولاً، وعملاً.

---

[12] صحيح سنن الترمذي: 3540.

وغيرها من الأدلة التي تفيد الخلاصة التالية: أنه لا يُخلّد في النار مَن مات على التوحيد المنافي للشرك، مهما كان منه من عملٍ طالح، ولا يدخل أحدٌ الجنةَ مات على الشرك والكفر مهما كان منه من عمل صالح .. هذا الذي عليه اعتقادُ أهلِ السنَّة والجماعة.

مسألة: الدعاء بالرحمة لمن يموت على الكفر والشرك: حيث درج بعض الشيوخ الذين أظهرتهم وسائل الإعلام، إذا أتوا على ذكر موتى الكفار والمشركين أو بعض أعلامهم ترحموا عليهم، وسألوا الله لهم الرحمة والمغفرة، وهذا لا يجوز، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التوبة: 113. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للّهِ﴾ ؛ بموته على الكفر والشرك ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ التوبة: 114.

وعن أبي هريرة، قال: زَارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَن حَوْلَهُ، فَقالَ: "اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ في أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا القُبُورَ فإنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ" مسلم.

ومن يأبى إلا أن يدعو لموتى المشركين بالرحمة والمغفرة ــ بعد أن بلغه العلم بالنهي عن ذلك ــ فهو من جهة يقع في المخالفة الشرعية، وفي معصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .. ومن جهة أخرى يتظاهر ويتشبّع، وكأنه أكثر رفقاً ورحمة بالعباد من الله تعالى، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا مزلق عقدي لا تؤمَن عقباه!

ومنها: أن المشرك لا تناله شفاعة الشّافعين، ولا شفاعة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ المدّثر: 48.

وقال تعالى عن الكافرين المشركين قولهم يوم القيامة: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الشعراء: 100-101. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ الأعراف: 53. وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: 255. والإذن يكون لمن يَشفع، وتحديد من يشفع لهم الشفيع؛ فلا يتعداهم، والله تعالى لا يأذن أن يُشفَع لكافر مشرك، حتى لو كان له صلة قرابة بالأنبياء. كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هود:

**45-46**. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ التوبة: **114**.

قَالَ العبَّاس بن عبد المطلب للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما أغْنَيْتَ عن عَمِّكَ ــ أي أبو طالب ــ، فإنَّه كانَ يَحُوطُكَ، ويَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: "هو في ضَحْضَاحٍ مِن نَارٍ، ولَوْلَا أنَا لَكانَ في الدَّرَكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّار" البخاري. والضحضاح: موضع قريبُ القَعْرِ، خفيف العذاب. وفي رواية: "لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتي يَومَ القِيَامَةِ؛ فيُجْعَلُ في ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ؛ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي منه دِمَاغُهُ" البخاري. فشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب تقتصر على تخفيف العذاب عنه، وليس على خروجه من النار والعذاب؛ لأن المشرك ــ كما تقدم ــ الذي يأبى إلا أن يموت على الشرك والكفر حكمه التخليد والتأبيد في نار جهنم والعياذ بالله. قال صلى الله عليه وسلم: "أَهْوَنُ أهْلِ النَّارِ عَذابًا أبو طالِبٍ، وهو مُنْتَعِلٌ بنَعْلَيْنِ يَغْلِي منهما دِماغُهُ" مسلم.

وقال ﷺ: "لكلِّ نبي دعوةٌ مُستجابةٌ، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من ماتَ من أمتي لا يُشرك بالله شيئاً" مسلم. فعلق الشفاعة على الموافاة على التوحيد، والبراء من الشرك. ونحوه قوله

ﷺ: "أُعطيتُ الشَّفاعة؛ وهي نائلةٌ من لا يُشرك بالله شيئاً". وقوله ﷺ: "أسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ؛ من قال لا إله إلا الله، خالِصاً من قلبه" البخاري.

العِلمُ والتفقه بالشرك: هذا بعض ما يجني الشركُ على صاحبه، وإنه لكثير كثير، وهو يستدعي منا القلق، والنفير، وبذل مزيد من الجهد للتعرّف على الشرك، والتفقه بأنواعه، وأقسامه، وجميع صوره القديمة منها والجديدة؛ لنحذَرَه، ونحذَرَ شِباكَه وذرائعه، ونُحذّر منه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأنعام: 55. من غايات نزول الآيات وتفصيلها، فضح وبيان وتعرية سبُل الشرك والمشركين؛ لنجتنبها، ونحذَرَها، ونحذّر منها، فجاهل الشرك لا يُؤمَن عليه الوقوع في الشرك، ومقارفته، وتحسينه، والجدال عنه، ثم يحسب أنه يحسن صنعاً .. والمرء عدو ما يجهل؛ يجهل التوحيد فيُعاديه، ويُعادي أهله، ويؤذي نفسه، ومن حوله، وهو لا يعلم!

وتأتي أهمية العلم بالشرك والتفقه به؛ أنه يتقدم الاعتقاد، والعمل؛ إذْ كيف نعتقد بطلان الشرك؛ ونقدر على اجتنابه في واقع حياتنا وأعمالنا، ونحن ابتداءً نجهله ...؟!

فالعلم يتقدم الاعتقاد والعمل، من هنا جاء الأمر الإلهي: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ محمد: 19. والأمر هنا يفيد الوجوب على جميع المكلفين من دون استثناء لأحد منهم، ذكوراً وإناثاً، كما أن العلم الواجب يجب أن يشمل ركني التوحيد اللذين

تتضمنهما شهادة التوحيد "لا إله إلا الله": النفي، والإثبات، وكل ما يتعلق بهما من متطلبات وعلوم .. وكما يجب أن نتفقه بمعنى ودلالات ومقتضيات "أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ"، يجب أن نتفقه بمعنى ودلالات ومقتضيات "وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ".

قال صلى الله عليه وسلم: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنّة" مسلم. مفهوم المخالفة أن من مات وهو لا يعلم أنه لا إله إلا الله ــ حتى لو كان يتلفّظ بها ــ لا يدخل الجنة .. فدل أن العلم بشهادة التوحيد "لا إله إلا الله"، شرط من شروطها.

ولَّما بَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعَاذًا رَضِيَ اللهُّ عنْه علَى اليَمَنِ، قَالَ: "إنَّكَ تَقْدَمُ علَى قَوْمٍ أهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِّ ــ وفي رواية: لا إله إلا الله ــ فَإذَا عَرَفُوا اللهَّ، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَّ قدْ فَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في يَومِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ، فَإذَا فَعَلُوا، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَّ فَرَضَ عليهم زَكَاةً مِن أمْوَالِهِمْ وتُرَدُّ علَى فُقَرَائِهِمْ، فَإذَا أطَاعُوا بهَا، فَخُذْ منهمْ وتَوَقَّ كَرَائِمَ أمْوَالِ النَّاسِ" متفق عليه. فأرشده إلى أن أول ما يبتدر إلى تعليمهم إياه التوحيد؛ لا إله إلا الله، فإذا عرفوا الله، ووحدوه، وعرفوا ما له من حق عليهم، أخبرهم ببقية الفرائض والواجبات .. ولأن الإتيان بالفرائض قبل

الإقلاع عن الشرك لا ينفعهم، وحينئذٍ يكون مثلهم مثل من يأتي بالشيء وضده في آنٍ معاً!

وعن جندب بن عبد الله، قال: "كنَّا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ فتيانٌ حَزَاورةٌ ــ أي غلمان نقارب سن البلوغ ــ فتعلَّمنا الإيمانَ ــ أي التوحيد ــ قبلَ أن نتعلَّمَ القرآن، ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازددنا بِه إيماناً" [13]. وهذا منهج نبوي في التلقين، ينبغي على الدعاة والمربين أن يتبنوه في عملية تربية الأبناء والأجيال .. فالجيل الذي يفقد التوحيد، ويفقد الاعتقاد الصحيح، يفقد المناعة والمقاومة، ويسهل غزوه، وإضلاله، وتجنيده في سبيل الطاغوت والباطل.

## أقسام الشرك: ينقسم الشرك إلى قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر.

الشرك الأكبر: كل اعتقاد أو قول أو فعل أطلق الشّارع عليه حكمَ واسمَ الشرك، ثم انتفت عنه القرينة الشرعية، من ذات النص، أو من نصوص أخرى من الكتاب والسنّة، التي تصرفه عن ظاهره إلى المعصية التي هي دون الشرك، أو إلى الشرك الأصغر.

---

[13] صحيح سنن ابن ماجه: 55.

فإن قيل: علام اشترطت انتفاء القرينة الشرعية التي تصرفه عن ظاهره، ودلالته ؟..

أقول: لأن الأحكام والأسماء الشرعية، والتي منها: الإيمان، والإسلام، والشرك، والكفر، والظلم، والفسق، والنفاق هي وقْف لله سبحانه وتعالى؛ لا يجوز أن نستبدلها أو أن نصرفها عن ظاهرها، ودلالتها إلا بنص وإذن من الله سبحانه وتعالى، فإذا انعدم النص والإذن، تعين الوقوف على الأحكام والأسماء على ظاهرها ودلالاتها كما هي، من غير زيادة ولا نقصان، ولا صرف، ولا تحريف، ولا تأويل.

فالله تعالى وحده يحكم على الأشياء بما يشاء، وله الحق وحده سبحانه وتعالى أن يحكم على الأشياء بما شاء، وأن يسميها بما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِّ﴾ يوسف: 40. ونحن نحكم عليها تبعاً لحكمه عليها من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، والذي يزيد وينقص، ويصرف الأحكام عن ظاهرها ودلالاتها من تلقاء نفسه من غير مستند شرعي، ويسمي الأشياء بغير أسمائها، كأن يسمي الشرك أو الكفر إيماناً وإسلاماً، أو غير ذلك من المسميات، أو يسمي المشرك الذي يُقتل في سبيل الطاغوت شهيداً، فهذا ممن يفترون على الله الكذب، ويُحمل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ يونس: 69. ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ النحل: 116. ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِّ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ النحل: 105. وله شبه كبير باليهود الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ النساء: 46.

والشرك الأكبر يترتب عليه في الدنيا الخروج من الإسلام، ومن مسمى الإسلام والإيمان، وفي الآخرة الخلود في نار جهنم أبداً. مثاله في القرآن والسنة كثير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِّ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ النساء: 48. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُّ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المائدة: 72. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: 121. فالشرك الوارد في هذه الآيات الكريمة يراد به الشرك الأكبر؛ لانعدام القرينة الشرعية التي تصرفه عن ظاهره إلى مجرد المعصية التي هي دون الشرك الأكبر، أو إلى الشرك الأصغر.

ورديف الشرك الأكبر، الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر، فجميع هذه الأحكام والأوصاف إذا أطلقت في الكتاب والسنّة يُراد منها الشرك الأكبر، ويترتب

عليها ما يترتب على الشرك الأكبر، من حيث الخروج من دائرة ومسمى الإسلام والإيمان، ومن حيث الخلود في نار جهنم أبداً.

مثال على الكفر الأكبر: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة: 72. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: 39. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ غافر: 12. فالكفر الوارد في هذه الآيات له نفس دلالات الشرك، ويترتب عليه ما يترتب على الشرك من حيث الخروج من دائرة ومسمى الإسلام والإيمان، ومن حيث الخلود في نار جهنم أبداً.

ونحو ذلك في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ الكهف: 37. وقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ الكهف: 42. فالذي كفر هنا هو نفسه الذي أشرك، وقال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ ، والذي أشرك هو نفسه الذي كفر، و ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ .

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الكافرون: 1-2. فرغم أن عبادتهم لغير الله شرك، إلا أن القرآن الكريم أطلق عليهم اسم، وحكم، وصفة "الْكَافِرُونَ"، وأمرنا أن نخاطبهم ونقول لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ .

فإن اجتمعا ــ أي الكفر والشرك ــ في نص واحد، فإنهما حينئذٍ يتحدان ويتفقان في الحكم والوعيد، من حيث الخروج من الإسلام، والخلود في نار جهنم .. ويفترقان فقط في الجانب اللغوي، والدلالة اللغويّة؛ فيحمل الكفر على الجحود والتكذيب، والشرك على العبادة، واتخاذ آلهة وشركاء مع الله، كما في الحديث، قال صلى الله عليه وسلم: "بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك"[14]. فعل واحد استحق اسمي وحكمي الكفر والشرك في آنٍ معاً، وفي نص واحد .. وتأويل ذلك ما تقدّم أعلاه.

وعند الانفراد؛ كأن يُقال فلان كافر، أو فلان مشرك .. حينئذٍ يكون كل منهما يؤدي إلى معنى الآخر من حيث الوعيد كما تقدم، إلا أنه يكون إظهار دلالات الجانب اللغوي للحكم ــ كافر أو مشرك ــ بصورة واضحة وأكبر هو المراد، والله تعالى أعلم.

---

[14] صحيح الترغيب: 574.

مثال على الظلم الأكبر: كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الأنعام: 82. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ آل عمران: 117. وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة : 254. وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ آل عمران: 94. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: 13. فالظلم والظالمون الوارد ذكرهما في الآيات الكريمة هنا لهما نفس معنى ودلالة الشرك، والمشركين، والكفر والكافرين، من حيث الوعيد، وما يترتب عليها من أحكام في الدنيا والآخرة.

ولو قيل: فلان مشرك ظالم؛ فيكون المعنى ما تقدمت الإشارة إليه عند الحديث عن اجتماع كلمتي الشرك والكفر، ويكون المراد إظهار جانب المعنى اللغوي للظلم؛ وهو البغي والعدوان، ومجاوزة الحد، إلى جانب معنى الشرك والكفر من حيث الوعيد والأحكام.

مثال على الفسق الأكبر: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ البقرة: 99. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة: 67. وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: 55. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ المائدة: 3. وقوله: ﴿وَأَمَّا

الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ السجدة: 20.

فالمراد من الفسق والفاسقين هنا الشرك والمشركين الشرك الأكبر، والكفر والكافرين الكفر الأكبر، والظلم والظالمين الظلم الأكبر، من حيث الوعيد، وما يترتب عليها من أحكام في الدنيا والآخرة؛ لانعدام القرينة الشرعية من الكتاب والسنة التي تصرف الفسق إلى المعصية التي هي دون الفسق الأكبر.

ولو قيل: فلان مشرك فاسق؛ فيكون المعنى ما تقدمت الإشارة إليه عند الحديث عن اجتماع كلمتي الشرك والكفر، واجتماع كلمات الشرك، والظلم، والكفر، ويكون المراد إظهار جانب المعنى اللغوي للفسق؛ وهو الخروج عن الطاعة، إلى جانب معنى الشرك والكفر والظلم من حيث الوعيد والأحكام الناجمة عنها.

وعليه نقول: كل شرك أكبر، كفر أكبر، وظلم وأكبر، وفسق أكبر، والعكس كذلك. وكل مشرك؛ كافر ظالم فاسق. وكل كافر؛ مشرك ظالم فاسق. وكل ظالم؛ مشرك كافر فاسق. وكل فاسق؛ مشرك كافر ظالم، من حيث الوعيد والأحكام التي يستحقونها في الدنيا والآخرة .. والافتراق فيما بينها عند الاقتران؛ يكون لبيان الجانب اللغوي لكل كلمة منها، إلى جانب الوعيد الشديد الذي يترتب عليها، في الدنيا والآخرة.

الشرك الأصغر: هو شرك دون شرك، وأحياناً يُسمى بالشرك الخفي؛ وهو كل ذنب أو معصية أطلق الشارعُ عليها اسم وحكم وصفة الشرك، ثم وجدت قرينة شرعية من الكتاب والسنة، تصرف هذا الشرك عن ظاهره ودلالته، إلى ذنب دون الشرك الأكبر، أو إلى الشرك الأصغر.

والشرك الأصغر من حيث الوعيد وما يترتب عليه من أحكام، إثم عظيم، وكبيرة من كبائر الذنوب، إلا أنه لا يخرج صاحبة من الملة، ولا يخلده في نار جهنم .. وأمره إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى؛ إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

مثال على الشرك الأصغر: قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: "الرياء؛ يقول الله ﷻ إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء" [15] . والقرينة الصارفة لهذا النوع من الشرك عن الشرك الأكبر، قوله صلى الله عليه وسلم ووصفه بـــ"الشرك الأصغر".

---

[15] أخرجه أحمد، والبيهقي، صحيح الترغيب: 29.

وقال صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس! إياكم وشرك السرائر" قالوا: يا رسول الله! وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر" [16].

وكذلك قول النبي ﷺ: "كل يمين يحلف بها دون الله شرك" [17]. وقوله ﷺ: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" [18]. فالشرك هنا يراد به الشرك الأصغر الذي هو دون الشرك الأكبر، والله تعالى أعلم.

ورديف الشرك الأصغر؛ الكفر الأصغر، والظلم الأصغر، والفسق الأصغر .. فجميع هذه الأحكام والأوصاف إذا أطلقت في الكتاب والسنّة يُقال فيها ما قيل في الشرك الأصغر، ويترتب عليها ما يترتب على الشرك الأصغر؛ من حيث الوعيد، وعدم الخروج من دائرة ومسمى الإسلام والإيمان، وعدم الخلود في نار جهنم .. وعند الاجتماع والاقتران في نص واحد يكون الغرض منها إبراز الجانب اللغوي لكل كلمة منها.

---

[16] أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، صحيح الترغيب: **28**. 22 صحيح الترغيب: **32**.

[17] السلسلة الصحيحة: **2042**.

[18] أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن. قال الشيخ ناصر: بل هو صحيح، السلسلة الصحيحة: **2042**.

مثال على الكفر الأصغر: كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل: 40. أي ءَأشكر النعمة أم أكفرها فلا أشكرها، فالكفر هنا يراد به كفر النعمة، وليس الكفر بالله ﷻ.

وفي الحديث، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: "أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ. قيلَ: أيَكْفُرْنَ باللهِّ؟ قالَ: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحْسَانَ، لو أحْسَنْتَ إلى إحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شيئًا ــ أي تكرهه ــ قالَتْ: ما رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ" البخاري. فالكفر هنا يراد به الكفر الأصغر، كفر النعمة والإحسان، وهو كفر دون الكفر الأكبر المخرج عن الملة. والحديث قد ترجم له البخاري في صحيحه بعنوان: كفران العشير، وكفر دون كفر.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه: مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيماناً، كذلك المعاصي تسمى كفراً، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة [19].

وكذلك قوله ﷺ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" مسلم.

---

[19] فتح الباري: 3/ 344.

وقوله ﷺ: "اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت" مسلم. فالكفر الوارد هنا يراد منه الكفر الأصغر، كفر دون كفر.

مثال على الفسق الأصغر: أو فسق دون فسق، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الحجرات: 6. وقوله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِ﴾ البقرة: 197. وقوله: ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ البقرة: 282. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: 4. فالفسوق الوارد في هذه الآيات يُراد به الفسق الأصغر؛ فسق دون فسق.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "سباب المسلم فسوق" مسلم. وقال ﷺ: "إذا كان يوم صوم أحدِكم فلا يرفث ولا يفسق". وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن حَجَّ هذا البيتَ؛ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كما وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" متفق عليه. فالفسوق الوارد هنا يُراد به المعصية أو الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الملة، ولا ينفي عنه مطلق الإيمان، ويُترك للمشيئة.

مثال على الظلم الأصغر: ظلم دون ظلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾ البقرة: 231. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِه﴾ صّ: 24. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَّ﴾ آل عمران: 135. وقوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾الأعراف: 23 . فالظلم الوارد في هذه الآيات يراد به الظلم الأصغر؛ ظلم دون الظلم الأكبر.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "الظلم الذي لا يغفره الله الشرك، قال الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ، وأما الظلم الذي يغفره فظلم العباد فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله؛ فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يُدبر لبعضهم من بعض" [20] . فدل أن الظلم درجات وأنواع، منه الأكبر، ومنه الأصغر.

في قوله ﷺ: "الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل". قال ابن تيميه في الفتاوى 7/ 67: قال ابن عباس وأصحابه: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وكذلك قال أهل السنة كأحمد وغيره ا- هـ.

النِّفاق: كذلك النّفاق منه الأكبر، ومنه الأصغر.

النِّفاق الأكبر: وهو النفاق الاعتقادي؛ وهو إضمار الكفر، وإظهار الإسلام تقيّة؛ وهو رديف الشرك والكفر من حيث خروج صاحبه من دائرة الإيمان والإسلام، وخلوده

---

[20] أخرجه الطيالسي، والبزار، صحيح الجامع: 3961.

في نار جهنم .. إلا أنه يختلف عن الكافر والمشرك من حيث المعاملة الدنيوية؛ فيُعامل معاملة المسلمين لإظهاره الإسلام!

والدليل عليه، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ النساء: 145. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ التوبة: 68. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ النساء: 140. فالنفاق الوارد في هذه الآيات يراد به النفاق الاعتقادي المنافي لمطلق الإيمان، والمخرج لصاحبه عن الملة، المخلّد له في النار .. والنفاق حيثما يُطلق في القرآن الكريم؛ يُراد به هذا النوع من النفاق؛ النفاق الأكبر الاعتقادي.

النّفاق الأصغر: وهو النفاق العملي؛ وهو نفاق دون نفاق، وهو رديف الشرك الأصغر، والكفر الأصغر من حيث الوعيد؛ لا يخرج صاحبه من دائرة الإسلام والإيمان، وهو يُترك للمشيئة؛ إن شاء الله عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولو عُذب لا يُخلد في النار.

والدليل عليه، قوله ﷺ: "من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق" مسلم. وقوله ﷺ: "أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خِلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها، إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد

أخلف، وإذا خاصم فجر" مسلم. فالنفاق هنا يُراد به النفاق العملي الأصغر الذي لا ينفي عن صاحبه مطلق الإيمان، ولا يخلده في النار.

قال النووي في الشرح 2/ 46-47: قد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار. وقوله ﷺ: "منافقاً خالصاً" معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي معناه عن العلماء مطلقاً فقال: إنما معنى هذه عند أهل العلم نفاق العمل. وحكى الخطابي رحمه الله قولاً آخر، أن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن تفضي به إلى حقيقة النفاق ا- هـ.

وقال ابن تيمية في الفتاوى 11/ 140-143: والنفاق يطلَق على النفاق الأكبر الذي هو إضمار الكفر، وعلى النفاق الأصغر الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات.

وعلى هذا فالنفاق اسم جنس تحته نوعان: قد يراد به النفاق في أصل الدين، مثل قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ المنافقون: 1.

والمنافق هنا الكافر. وقد يراد به النفاق في فروعه، مثل قوله ﷺ: "آية المنافق ثلاث". وقوله: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً" ا- هـ.

مسألة: كثيراً ما يُثار السؤال عن المراد من الآيات الثلاث الواردة في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ . ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ . هل يُراد منها الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر، أم أن المراد منها الكفر الأصغر، والظلم الأصغر، والفسق الأصغر ..؟

مما يساعدنا على الإجابة الصحيحة أن نعرف أولاً فيمن نزلت هذه الآيات، قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، ففيهم والله أنزل وإياهم عنى الله ﷻ. وقال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر.

وعن البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبي مجلز، وأبي رجاء العطاري، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري وغيرهم، قالوا: نزلت في أهل الكتاب. زاد الحسن البصري فقال: وهي علينا واجبة.

وعن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة.

والذي اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره: أن الآيات المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب [21].

وعليه، فإن الآيات ابتداء إذا أطلقت ينبغي أن تُحمل على الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر؛ لأنها نزلت في كفار ومشركي أهل الكتاب.

كذلك ينبغي أن تُحمَل على الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر، في حال وقع حكام المسلمين فيما وقع فيه كفار أهل الكتاب من ردٍّ، وإعراضٍ، وجحودٍ لحكم الله تعالى المنزَّل .. كما قال الحسن البصري: "وهي علينا واجبة"، فليس لهم كل مرة، ولنا كل حلوة.

أما إن وقع حكام المسلمين بنوع تقصير ومخالفة لحكم الله تعالى المنزّل، من غير جحود ولا ردٍّ، ولا إعراض، ولا تهكم واستهزاء، لا ترقى مخالفتهم إلى درجة مخالفة كفار أهل الكتاب، فحينئذٍ يُحمل عليهم، قول ابن عباس الآخر، وغيره من أهل العلم، عندما سُئلوا عن حكام زمانهم بني أمية ومن جاء بعدهم، وما وقعوا فيه من مخالفات: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه؛ كفر لا ينقل عن الملّة، إنما هو كفر دون كفر، وظلم دون

---

[21] انظر تفسير ابن كثير.

ظلم، وفسق دون فسق، وتحمل الآيات حينئذٍ على الكفر الأصغر، والظلم الأصغر، والفسق الأصغر، والله تعالى أعلم.

**أنواع الشرك**: بعد أن تعرفنا على أقسام الشرك، وذكرنا أن منه الأكبر، ومنه الأصغر، نُشرع في بيان أنواع الشرك.

**1- شرك الطاعة**: اعلم ابتداء أن المُطاع لذاته؛ لأنه هو هو، هو الله تعالى وحده، فهو الربّ المتفرد بالربوبية؛ الخالق، المالك، الرازق، المحيي والمميت، القيوم على رعاية شؤون وحاجيات الخلق كل الخلق، وكما يربيهم وينشئهم على نعمه، ووفق مشيئته وأمره الكوني، ولا ينازعه أحد في ذلك، فله سبحانه أن يربيهم وينشئهم وفق أمره الشرعي، وبالتالي فهو المألوه المعبود المطاع لذاته، فيما أمر ونهى عنه، وما سواه ــ أيّاً كان وكانت صفته ــ يُطاعُ فيه وله، وفي المعروف، كما أمر الله؛ لأنه ليس رباً، ولا يملك شيئاً من خصائص الربوبية، بل هو عبد مملوك مخلوق مربوب لله، شأنه شأن أي عبد من عباد الله .. وبالتالي ليس لأحدٍ أن يدعي لنفسه أو لغيره هذا الحق؛ حق الطاعة لذاته، فيُطاع لذاته في الحق والباطل، وفي جميع ما يأمر به، ويصدر عنه، لأنه هو هو .. فمن ادعى لنفسه هذا الحق من دون ــ أو مع ــ الله، فهو طاغوت كافر مشرك، يدّعي الألوهية والربوبية على الناس .. ومن أقرَّ له بهذا الحق؛ فهو مشرك؛ قد اتخذه نداً وشريكاً لله في

الألوهية، والربوبية، وفي أخص ما يدخل في معنى التألّه والعبادة .. ولما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسولَ اللهِ إنَّ حمدي زينٌ وإنَّ ذمّي شينٌ"؛ أي ما أراه زيناً وحقاً، فهو الزين وهو الحق، وما أراه شيناً وباطلاً؛ فهو الشين والباطل! فقالَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ذاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ" [22] . فهذا الحق ليس لك، ولا لغيرك؛ فما تراه حقّاً قد يكون في حكم الله وشرعه باطلاً، وما تراه باطلاً قد يكون في حكم الله وشرعه حقّاً، فالحكم لله تعالى وحده، وهو وحده سبحانه الذي يحكم على الأشياء، بأنها زين وحق، أو شين وباطل .. ثم يكون حكمه ملزماً وماضياً على البلاد والعِباد.

ومن الأدلة الدالة على شرك الطاعة، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يس: **60-61**. وعبادة الشيطان تكون بطاعته، فيما يوحي به إلى أوليائه، ومن يقعون في شباكِه .. وما من شرك أو معصية تحصل في الأرض، إلا وللشيطان فيها نصيب، ونصيب كبير .. فالشيطان يريد منك الشرك، ويأمرُك بالشِّرك، ثم بعد ذلك لا يُبالي أيّ طاغوتٍ تعبُدُ، وبأيّ دينٍ تتَديّن .. لذا تجد كل الأديان القائمة على الشرك؛ على ما بينها من تفاوت، وتباين، واختلاف .. إذا كانت المعركة بينها وبين دين التوحيد؛ الإسلام .. يوحّد

---

[22] أخرجه الترمذي، والنسائي، وأحمد، صحيح سنن الترمذي: **3267**.

الشيطان صفها وكلمتها ويؤالف فيما بينها ضد الإسلام .. فالمعارك فيما بينهم قائمة لا تتوقف، فإذا كانت المعركة ضد الإسلام، تصالحوا واتفقوا، وتناسوا ما بينهم من خلافات وصراعات، واتحدوا ضد الإسلام، كما قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ المائدة: 51. ضد الإسلام، والمسلمين.

وهناك فريق من الناس؛ يُعرَفون بالروحانيين أو الشيطانيين ــ وعددهم ليس بقليل ــ يعبدون الشيطان صراحة ومباشرة من جهة الطاعة، والخوف، والخشية، والرجاء، ليتفادوا شرَّه .. كما يزعمون .. ويُقاتلون دونه وفي سبيله لو ذُكِر بسوء!

والشيطان ضعيف، وكيده ضعيف .. وقوته لا تأتي من ذاته، وإنما تأتي من جهة جهل الناس، ومن بعد العباد عن رب العِباد، قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ النساء: 76. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر: 42. ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ النحل: 99. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ الإسراء: 65. ومن يخرج من الناس عن صفة "عِبَادِي"، هو الذي يجد الشيطان إليه سبيلاً، ويكون له عليه سلطاناً، والشيطان يعترف بهذا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ ص: 83-83. فعباد الله المؤمنين لا سلطان له عليهم، ولا سبيل له لإغوائهم.

وهو يوم القيامة لمَّا يحق الحق، ويرى العذاب، يتبرأ ممن أطاعه واتبعه، واستجاب لإغوائه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إبراهيم: 22.

ومن الأدلة كذلك على شرك الطاعة، قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِّ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: 121. أي ليجادلوهم في حِل أكل الميتةِ؛ على اعتبار أن الله تعالى هو من أماتها وذبحها؛ فكيف تأكلون ما ذبحتم بأيدكم، ولا تأكلون ما ذبح اللهُ .. نأكل مما قتلنا، ولا نأكل، ولا تأكلون مما قتل اللهُ؛ ويعنون الميتةَ .. وكاد أن يوجد من المسلمين من يُصغي إليهم .. فأنزل الله تعالى حكمه الحاسم، والقاطع، والمخيف: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ ؛ في تحليل أكل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم!

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ محمد: 25-26. فهم ارتدوا من بعد ما تبين لهم الهدى، ووقعوا في النفاق الأكبر، بسبب أنهم قالوا للكافرين سنطيعكم في بعض الأمر؛ مما فيه عداوة لله، ولرسوله، وللمؤمنين!

وكذلك قوله تعالى عن الطاغية فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص: 38. أي ما علمت لكم من معبود ومُطاع ترجعون إليه في جميع شؤون حياتكم الدينية والدنيوية غيري.﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات: 14. الذي أربيكم وأنشئكم على ما أراه وأستصوبه لكم من الدين والقوانين، والشرائع، لا يجوز أن تروا إلا ما أراه لكم، ولا أن تستحسنوا شيئاً إلا ما أستحسنه لكم ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر: 29.

ولما آمن السحرة بموسى كان اعتراض فرعون عليهم، أنهم قد خرجوا عن الطاعة، وأنهم آمنوا بموسى عليه السلام، واستحسنوا أمراً وديناً لم يأذن به، ولم يستأذنوه به، فقال لهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ﴾ الأعراف: 123. ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ

خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ طه: 71. هذا عقاب كل من يخرج على قانون فرعون الذي ينص على أن المطاع لذاته في جميع ما يصدر عنه من تعليمات، وأوامر ونواهي، هو فرعون فقط، وما سواه يجب أن يستأذن ويُرجَع فيه إلى فرعون، فإن أذن، وإلا فلا .. وما أكثر طواغيت وفراعنة العصر الذين يتخلّقون بأخلاق فرعون، ويقولون مقولة فرعون الواردة أعلاه بأساليب شتى ومختلفة، ويلزمون الشعوب بقوانينهم وشرائعهم، من دون شرائع وقوانين الله، ويرون أن لهم على الشعوب حق الطاعة والانقياد والاتباع من دون الله .. وإن كان فرعون موسى أصدق منهم لهجة، وأكثر صراحة، وأجرأ وأوقح في زعم وادعاء الألوهية والربوبية!

وقال تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ؛ الأسياد والعبيد .. الجنود والزعماء .. الأتباع والمتبوعين .. المستكبرين والمستضعفين من المشركين، وهم في نار جهنم يختصمون، ويتجادلون، ويتبادلون التهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء: 96-98. وتسويتهم برب العالمين لم تكن بالسجود والركوع، وإنما كانت بالطاعة، والانقياد لهم ولقوانينهم وشرائعهم، من دون الله .. وكانوا يرون لهم حق الطاعة من دون الله .. وهذا المعنى قد صرحوا به لفظاً: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾

الأحزاب: 67-68. فكان الضلال والإضلال من جهة طاعتهم لأسيادهم وكبرائهم من دون الله. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ ؛ نطيعكم فيما تأمرون به، وتنهون عنه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَّ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ غافر: 47، 48﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهَّ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ ؛ وكنا نطيعكم في ذلك ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سبأ: 31-33.

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ التوبة: 31. وذلك لما أطاعوهم في التحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح من دون الله، فأحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال، فأطاعوهم في هذا وذاك .. فتلك كانت ربوبيتهم وعبادتهم من دون الله!

عن عدي بن حاتم الطائي، قال: أتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفي عُنقي صليبٌ من ذهبٍ، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا عديُّ اطرَح هذا الوثنَ"، وسمعتُه يقرأ

في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ . فقلتُ: إنا لسنا نعبدُهم؟ قال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ــ أي من جهة الصلاة والركوع والسجود ــ ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوهُ، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموهُ؛ فتلك عبادتُهم" [23]. فعدَّ طاعتهم في التحليل والتحريم من دون الله، عبادة لهم، واتخاذهم أرباباً من دون الله.

وقد سُئِلَ حُذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ عن هذه الآيةِ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، أكانُوا يُصلُّون لهم؟ قال: لا؛ ولكنهم كانوا يُحلُّون لهم ما حرَّم اللهُ عليهم فيستحلُّونه، ويُحرِّمون عليهم ما أحلَّ اللهُ لهم فيُحرِّمونَه، فصاروا بذلك أرباباً.

قال ابن تيمية في الفتاوى 7/ 67: وكذلك قال أبو البحتري: أما إنهم لم يصلوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم؛ فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم.

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أُمروا به وما نُهوا عنه، فقالوا:

---

[23] أخرجه الترمذي: **3095**. السلسلة الصحيحة: **861**.

لن نسبق أحبارنا بشيء؛ فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ا- هـ.

ونحو ذلك، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ كلانا نلتزم بها، لا فرق بيننا وبينكم أمام هذه الكلمة .. فإننا لا ندعوكم إلى شيء نحن لا نلتزم به .. ما هي هذه الكلمة: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ ؛ أي لا يتخذ بعضنا بعضاً مشرعين؛ نحلل، ونحرم، ونحسن، ونقبح من تلقاء أنفسنا؛ من دون الله، ومن دون سلطان من الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: **64**. بهذا الوضوح وهذه الصراحة ينبغي أن يكون الحوار .. وأن يبتدئ الحوار .. هذه هي زاوية الانطلاق لأي حوار جاد يُجرَى مع أهل الكتاب، وأيما حوار يتجاوز ويتجاهل هذا الأصل، وهذا المبدأ .. فهو من جهة مخالف لنهج القرآن، ونهج الأنبياء والرسل في الدعوة والتحاور مع الآخرين .. وهو من جهة ثانية حوار فاشل لا يتأتَّى بثمار ذي بال .. وهو أقرب إلى الهزل وللعب، والضَّحك على الذقون .. وإضاعة الأوقات .. ودليل ذلك حوار الأديان الذي تتَداعى له الأطراف، في زماننا المعاصر، والذي هو أقرب إلى حوار الطرشان، منه إلى حوار الأديان!

وحتى يكون حديثنا شاملاً عن شرك الطاعة، ونكون أكثر حذراً ووعياً وإلماماً بهذا النوع من الشرك الواسع الانتشار، لا بد من الإشارة إلى بعض الصور والمفردات ذات العلاقة بشرك الطاعة، والتي نعايشها في واقعنا وحياتنا، ونتعرف على وجه الحق فيها من الباطل.

من هذه الصور؛ طاعة الحكام والأمراء: نعني بالحكام والأمراء؛ المسلمين منهم، وهؤلاء لهم حق الطاعة على الناس، لتستقيم حياتهم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأمنية، وغيرها من جوانب الحياة إلا أن طاعتهم مرشدة؛ في الحق وفي المعروف، وفيما ليس فيه معصية لله، فإذا أمروا أمراً فيه معصية لله، فلا طاعة لهم في معصية الله .. فطاعتهم ليست مطلقة من غير قيد ولا شرط، كما يظن البعض، وكما يريد البعض، وكما يتعامل البعض مع الحكام.

قال رسولُ الله ﷺ: "إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ مُجَدَّعٌ ــ أي مقطوع الأطراف ــ يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا" مسلم.

وقال ﷺ: "السَّمعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحبَّ وكرِهَ، ما لم يؤمَر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سَمعَ ولا طاعة" متفق عليه. وقال ﷺ: "لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنما الطاعةُ في المعروف " متفق عليه. وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن أمركُم من الولاة

بمعصيةٍ فلا تُطيعوه" [24] . وقال ﷺ: "لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق" [25] .

وقال ﷺ: "طاعةُ الإمامِ حقٌّ على المرءِ المسلم، مالم يأمر بمعصيةِ الله ﷻ، فإذا أمرَ بمعصيةِ الله فلا طاعةَ له" [26] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: بعَث رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَريَّةً، واستَعمَل عليهم رجُلًا منَ الأنصارِ، وأمرهم أن يُطيعوه، قال: فلمَّا خرَجوا، وجَد عليهم في شيءٍ، فقال لهم: أليس قد أمرَكم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ تُطيعوني؟ قالوا: بَلَى. قال: فقال: اجمَعوا حَطباً، ثُم دعا بنارٍ فأضرَمها فيه، ثُم قال: عزَمْتُ عليكم لَتَدخُلُنَّها. قال: فهمَّ القومُ أنْ يدخُلوها، قال: فقال لهم شابٌّ منهم: إنَّما فرَرْتم إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منَ النَّارِ، فلا تعجَلوا حتى تَلقَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أمرَكم أنْ تدخُلوها فادخُلوها، قال: فرجَعوا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخبَروه، فقال لهم: "لو دخَلْتُموها ما خرَجْتم منها أبدًا، إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ" [27] . وفي رواية عند مسلم: "فَقالَ صلى الله عليه وسلم لِلَّذِينَ

---

[24] رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، السلسلة الصحيحة: **2324**.

[25] صححه الشيخ ناصر في المشكاة: **3696**.

[26] السلسلة الصحيحة: **752**.

[27] أخرجه أحمد في مسنده وغيره، وصححه أحمد شاكر في التخريج.

أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: لو دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إلى يَومِ القِيَامَةِ، وَقالَ لِلآخَرِينَ قَوْلًا حَسَناً، وَقالَ: "لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إنَّما الطَّاعَةُ فِي المَعروف".

وقال صلى الله عليه وسلم: "سيليكُم أمراءٌ بعدي يُعرِّفونَكم ما تُنكِرون[28]، ويُنكِرون عليكم ما تَعرفون[29]، فمن أدركَ ذلك منكم، فلا طاعةَ لمن عصى الله"[30].

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: "سيلي أمورَكم بعدي رجالٌ يُطفِئون السُّنةَ، ويَعملون بالبدعة، ويُؤخِّرون الصلاةَ عن مواقيتها"، فقلت: يا رسولَ الله! إن أدركتُهم كيفَ أفعل؟ قال: "تسألني يا ابنَ أمِّ عبد كيف تفعل؟ لا طاعة لمن عصى الله"[31].

ولو أخطأوا تعين نصحهم برفق .. فإذا ظلموا وجاروا تعين أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقول الحق لهم، كما في الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الدينُ النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله، ولكتابِه، ولرسولِه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم" مسلم.

---

[28] أي ما تنكرون من الباطل الذي يخالف دينكم.

[29] من الحق الذي يوافق دينكم.

[30] رواه الحاكم، السلسلة الصحيحة: **590**.

[31] رواه أحمد، وابن ماجه، والطبراني، السلسلة الصحيحة: **590**.

وقال ﷺ: "ثلاثةٌ لا يغلُ عليهنَّ قلبُ المؤمن: إخلاصُ العملِ لله، والنصيحةُ لولاةِ الأمر، ولزومُ جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تحيطُ مِن ورائهم" [32].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضلُ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ" [33].

وفي رواية عنه: "أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ من أعظمِ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ" [34].

وقال صلى الله عليه وسلم: "سيدُ الشهداء حمزةُ بن عبد المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمرَه ونهاهُ فقتلَهُ" [35].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أحبُّ الجهادِ إلى اللهِ؛ كلمةُ حقٍّ تُقال لإمامٍ جائرٍ" [36]. فهي إذاً ليست طاعة سلبية عمياء من غير بصيرة، تتسم بالخنوع والذل

---

[32] رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: **1086**.

[33] صحيح سنن أبي داود: **3650**.

[34] صحيح سنن الترمذي: **1766**.

[35] أخرجه الحاكم، السلسلة الصحيحة: **491**.

[36] أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: **168**.

والعَمَى، من غير نصح، ولا أمر، ولا نهي، ولا صدع بالحق في حال حصول الانحراف، أو الظلم .. كما يصور ويريد البعض!

فإن قيل: يُنصَح ويؤمر سرّاً أم علانيةً؟

أقول: إن كان خطأه خاصّاً وشخصياً .. يُنصح سراً، ولا يبده علانية، وهو أدعى للقبول، كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أرادَ أن ينصحَ لِذي سلطانٍ فلا يُبدِه علانيةً، ولكن يأخذ بيدِه فيخلُو به، فإن قَبِل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه" [37].

وقال ﷺ: "من كانت عنده نصيحةٌ لِذِي سلطانٍ فليأخذْ بيدِه، فليخلُو بِه، فإن قَبِلَها قَبِلَها، وإن ردَّها كان قد أدَّى الذي عليه" [38].

وإن كان خطأه عامَّاً؛ ينعكس سلباً على البلاد والعباد، وعلى جميع من يحكمهم من الناس، ثم هو ماضٍ في خطئه وغيّه، لا يرعوي لنصح ناصح .. فهذا يُنصح سراً وعلانيةً، وعلى أي وجه تتحقق فيه النصيحة، لأن الضرر العام لا ينكفئ ولا يزول بالنصح سراً.

---

[37] رواه أحمد، وابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: **1096**.

[38] رواه احمد، وابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: **1098**.

قال ﷺ: "سيكونُ أُمراءُ من بعدي؛ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمَرون، فمن جاهدَهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدَهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدَهم بقلبه فهو مؤمِن، لا إيمانَ بعدَه" [39].

وقال صلى الله عليه وسلم: "يكونُ أمراءٌ فلا يُرَدُّ عليهم قولُهم، يَتهافَتون في النَّار، يَتْبَعُ بَعضُهم بَعضاً" [40].

فإن قيل: كيف نوفق بين الحديث الذي أخرجه مسلم، عن وائل بن حجر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ ورجلٌ سأله فقال: أرأيتَ إن كان علينا أمراء يمنعونا حقَّنا، ويسألونا حقَّهم؟ فقال رسولُ الله ﷺ: "اسمعوا وأطيعُوا؛ فإنَّما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتُم". ونحوه من الأحاديث، وبين الأحاديث الواردة أعلاه التي تحض على نصحهم، وأمرهم ونهيهم، والصدع بالحق أمامهم، وإنصاف الحق منهم ...؟

أقول: لا تعارض بينهما؛ فالحديث الأول وما يشابهه من أحاديث، فإنها تنص على السمع والطاعة في المعروف اللذان يمنعان عن الخروج على هؤلاء الأمراء والحكام بالقوة، ونزع يد الطاعة كلياً، ولو شرع الخروج عليهم بالقوة، ونزع يد الطاعة منهم

---

[39] صحيح موارد الظمآن: **1298**. وقوله: "لا إيمانَ بعدَه"؛ لأنه ليس بعد إنكار القلب ومجاهدته للباطل سوى الإقرار والرضى؛ والرضى بالكفر كفر.

[40] السلسلة الصحيحة: **1790**.

لأدنى خطأ أو ظلم يقع، لما عرف المسلمون، ولا عرفت بلدانهم الأمن والاستقرار، ولعاشت طيلة حياتها ظروف الاقتتال والحروب الداخلية، التي يعقبها الدمار والخراب، وغياب الأمن والأمان .. وهذا لا يتعارض مع ما توجبه الأحاديث الأخرى، التي تحض على نصحهم وأمرهم، ونهيهم، وقول الحق لهم، والصبر على ذلك؛ فهذا شيئ لا حرج فيه، بل هو واجب ومحمود، والخروج عليهم بالقوة، ونزع يد الطاعة مطلقاً للسبب الوارد في الحديث أعلاه، شيء آخر، وهو لا يجوز.

أما إن كان الحاكم يتخلّق بأخلاق فرعون؛ فيقول بلسان الحال والواقع والعمل، وأحياناً بلحن المقال، ما قال فرعون من قبل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص: 38. ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات: 14. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر: 29. فهذا لا طاعة له البتّة، ويتعين الخروج عليه، وإزالته عن سدة الحكم عند توفر القدرة على ذلك، كما في الحديث، عن عبادة بن الصامت، قال: "دعانا النبي ﷺ، فبايعناه؛ فيما أخذ علينا أن بايعَنا على السمعِ والطاعة في مَنْشَطِنا ومكرهنا، وعُسرِنا ويُسرنا، وأثرةٍ علينا، وأن لا نُنازِع الأمرَ أهلَه، إلا أن تَروا كُفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان" متفق عليه. لأن الخروج على هكذا حاكم مهما ترتب عليه من الضرر، فهو أقل ضرراً من إقراره، والرضى به حاكماً على البلاد والعباد.

ومنها: طاعة الشيوخ، والعلماء: وهؤلاء على ما لهم من حق كبير من التوقير والاحترام قد نصت عليه نصوص الشريعة، إلا أنه لا يجوز التعصّب لهم، ولمذاهبهم، والتعامل معهم وفيما يذهبون إليه من آراء وأقوال، أو تحليل وتحريم، أو تحسين وتقبيح، بقدسية وعصمة، وأنهم فوق الخطأ والمساءلة، وأن يُرد لهم قول، كما لا يجوز أن يُرفعوا إلى مقام النبوة كما يفعل جهلة وغُلاة الصوفيّة مع شيوخهم، أو أن يُطاعوا لذواتهم، فهذا شرك، وربوبية لا يجوز صرفها لمخلوق، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى عند الحديث عن شرك طاعة الأحبار والرهبان .. فكل ــ عدا الأنبياء والرسل الذين يبلغون عن ربهم ــ يؤخَذ منه ويُرد عليه، ويُقال له أخطأت، وأصبت .. أحسنت وأسأت .. ويُطاع ببصيرة، وعلى بينة من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف: 108. وبخاصة أننا في زمانٍ قد فشا فيه المتسلّقون، والكذب، وأُكِلَ بالدين، وضاعت فيه الأمانة، حتى بات يُقال في بني فلان رجلٌ أمين!

قال ابن تيمية في الفتاوى 1/ 98: "كثير من المتفقهة، وأجناد الملوك، وأتباع القضاة، والعامّة المتبعة لهؤلاء يُشركون شركَ الطاعة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم، لعدي بن حاتم، لما قرأ: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ التوبة:

31. فقال يا رسولَ الله ما عبدوهم. فقال: "ما عبدوهم؛ ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم". فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه، والحرام ما حرمه، والحلال ما حلله، والدين ما شرعه، ثم يخوّف من امتنع من هذا الشرك، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً؛ في طاعته بغير سلطان من الله" ا-هـ.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ؛ عن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمرِ غيره، وعن طاعته إلى طاعة غيره، أيّاً كان هذا الغير، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ ؛ أي كفر، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة: 217. أي الكفر؛ ولا أكبر من وزر القتل إلا الكفر والشرك، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور: 63. في الدنيا والآخرة.

قال الإمام أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثةٍ وثلثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، وجعل يكررها، ويقول: وما الفتنة؟ الشرك ــ وفي رواية: وتدري ما الفتنة؟ الكفر ــ لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيئ من الزيغ، فيزيغ قلبه

فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء: 65. [41].

ومنها: طاعةُ الآباء: رغم أن للآباء حقٌّ مغلّظ على الأبناء، إلا أن طاعتهم ليست مطلقة من غير قيد ولا شرط، كما لا ينبغي ولا يجوز أن يستغلوا هذا الحق في حمل الأبناء على الشرك، ومعصية الله تعالى؛ فطاعتهم ليست لذواتهم، وإنما هي لله، وفي الله، وهي مقيدة في المعروف، وفيما ليس فيه معصية لله تعالى، فإذا أمروا بالشرك، أو بمعصية، أو قطيعة رحم، فلا سمع ولا طاعة لهم فيما أمروا به .. مع بقاء جانب البر، والتوقير، وحسن الصحبة والرعاية محفوظاً لهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْك إلَيَّ المَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ لقمان: 14-15.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت: 8.

---

[41] الصارم المسلول، ص 56.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق، قالت: قدِمَت عليَّ أُمي وهي مشركةٌ في عهدِ رسولِ الله ﷺ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ، قلت: قدمت علي أُمِّي وهي راغبةٌ ــ أي طامعة بما عندي من المال، وهي تريد شيئاً منه ــ أفأصِلُ أمي؟ قال: "نعم صِلي أُمَّك" متفق عليه.

وعن أبي هريرة، قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على عبدِ الله بن أُبيٍّ ابن سَلُول ــ رأس النّفاق ــ وهو في ظلِّ أجَمَةٍ ــ أي شجرة ــ فقال: قد غبَّرَ علينا ابنُ أبي كَبشَةَ ــ كلمة تفيد الذم!! ــ فقال ابنُه عبد الله بن عبد الله: والذي أكرمَكَ وأنزَلَ عليكَ الكتاب، إن شِئتَ لأتيتُكَ برأسِه! فقال النبيُّ ﷺ: "لا؛ ولكن بِرَّ أباكَ، وأحسِنْ صُحبتَهُ" [42]. في هذا الموقف العصيب الذي يتطاول فيه رأس النفاق على سيد الخلق، والذي تزول منه الجبال .. يقول النبي صلى الله عليه وسلم لولده عبد الله: "لا؛ ولكن بِرَّ أباكَ، وأحسِنْ صُحبتَهُ"؛ فكفره ونفاقه ظلم عظيم، لا يُقَر، ولا يُتابع عليه .. لكن لا ينبغي ــ يا عبد الله! ــ أن يمنعك من أن تبرّ أباكَ، وتحسن صحبته .. الله أكبر .. أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[42] أخرجه ابن حبان في صحيحه وغيره، السلسلة الصحيحة: **3223**.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق". شامل لأي مخلوق مهما علت مكانته، وعظم حقه وقدره، بما في ذلك الآباء، والأمهات .. فحقُّ الله أولى، وأعلَى، وأجل.

وعلى ما تقدم أعلاه يُقاس كل من له حق الطاعة على الآخر؛ كالأزواج، والأصحاب، والأخلاء، وغيرهم، وأراد أحدهم أن يمارس حقه بطريقة خاطئة، وفيما لا ينبغي له ولا يجوز .. وفي حال فعلوا شيئاً من ذلك، يُقال لهم ما قيل لغيرهم: إنما الطاعة في المعروف، وفيما ليس فيه معصية لله، إذْ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

مسألة: قد يرد السؤال التالي: أن المرء قد يطيع الشيطان، ومن له حق عليه ممن تقدم ذكرهم أعلاه، وغيرهم، في معصية أو بعض المعاصي .. فهل مطلق الطاعة شرك، ومتى تكون الطاعة شركاً، ومتى تكون دون ذلك؟

الجواب: تكون الطاعة شركاً أكبر في الحالات التّالية:

1- أن يُطاع المخلوق لذاته؛ لأنه هو هو، بغض النظر عما يصدر عنه من حق أو باطل.

2- أن لا يُطاع لذاته، وإنما أن يُطاع ويُتابَع في الشرك والكفر.

**3- أن يُطاعَ ويُتابع في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وتحسين الباطل، وتقبيح الحق.**

**وما سوى ذلك من الطاعات فهي معصية من المعاصي، لا ترقى إلى درجة الكفر والشرك .. والقول بخلاف ذلك يلزم منه تكفير العباد بالمعاصي، والكبائر، ومطلق الذنوب .. وهذا بخلاف صحيح النقل، وصريح العقل، وإجماع المسلمين، ولم يشذ عنهم إلا الخوارج الغُلاة، الذين كفروا بالمعاصي وكبائر الذنوب، وشذوذهم غير معتبر، ولا يُلتفت إليه!**

**2- شرك المحبّة: اعلم ابتداء أن المحبوب المتألّه لذاته، الذي يُعقَد فيه الولاء والبراء، والحب والبغض، وتُحَب الأشياء له وفيه، هو الله تعالى وحده، وما سواه يُحب له وفيه .. وهذا من أخص خصوصيات الخالق سبحانه وتعالى، ومن أخص ما يدخل في معنى العبادة والتألّه والتوحيد .. وتحقيق المحبة بهذا المعنى والمفهوم غاية الوجود، وغاية الغايات، والغاية من العبادة ذاته؛ فالله تعالى لا يريد من عبادة العباد سوى الإخلاص، والمحبة .. وأيما عبادة تخلو من الإخلاص والمحبة أو من أحدهما فهي مردودة غير مقبولة.**

وأيما مخلوق ــ أيّاً كانت صفته أو كانت هيئته ــ يدّعي هذا الحق لنفسه من دون ــ أو مع ــ الله، ويرى لنفسه حقّاً على الآخرين في أن يوالوه لذاته في الحق والباطل سواء، وأن يعقدوا فيه الموالاة والمعاداة، والحب والكره، والسلم والحرب، والحقوق والواجبات .. فهو طاغوت كبير، ووثن كبير يُعبد من دون الله .. وأيما إنسان يعترف لهذا الطاغوت بهذا الحق، أو يصرف له هذا الحق، فهو كافر مشرك، قد دخل في عبادته من دون الله .. واتخذه إلهاً ومعبوداً مع الله!

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً﴾ شركاء ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ ؛ فيوالونهم لذواتهم، وبوالون ويُعادون فيهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ﴾ البقرة:**165**.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء: **96- 98**. أي نسويكم بربّ العالمين في الطاعة والمحبّة، فكنا نواليكم لذواتكم، ونعقد فيكم الولاء والبراء، والحب والبغض من دون الله.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ التوبة: **23**. فالآباء على ما

لهم من حق البر والإحسان في المعاملة، والصحبة بمعروف، إلا أنه لا تجوز محبتهم، ولا نصرتهم في الباطل، وما هم عليه من الكفر، أو أن يوالَوا لذواتهم، وأن يُعقد فيهم الولاء والبراء، والحب والكره، فنوالي من يوالي الآباء ويوالونه، ونعادي من عادى الآباء، ويعادونه، من دون الله، ومن دون النظر إلى موافقتهم للحق أو مخالفتهم له، فهذا باطل، وشرك صريح، يناقض دعوى وزعم الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ المائدة: **81**. وهذه الآية تنفي الإيمان عمن يتخذ الكافرين أولياء؛ فينصرهم في الباطل، ويواليهم ويحبهم لذواتهم، أو لما هم عليه من كفر وباطل، ولا ينتفي الإيمان مطلقاً إلا لنوع كفر وشرك.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء﴾ ؛ سؤال يفيد الاستنكار والتعجب، والنفي؛ أي هذا غير ممكن التحقق والحصول، وفي حال تحققه وحصوله، فإنهم مباشرة يخرجون من صفة وزمرة، ومسمى ﴿عِبَادِي﴾ إلى عبادة غير الله من جهة المحبة والطاعة والموالاة، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ الكهف: **102**. وكذلك قوله تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ﴾ ؛ فهو براء من الله ومن دينه،

والله تعالى براء منه ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾ آل عمران: 28. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة: 51. ولاية نصرة في الباطل، ومحبة ومودة، وركون إليهم، وإلى باطلهم .. فهذا كله مقطوع ممنوع بين المؤمنين والكافرين، طاعة لله رب العالمين، فمن علامات صدق محبة العبد لربه، أن يتابع محبوبه فيما يحب ويكره؛ فالله تعالى يحب الإيمان والمؤمنين، ويبغض الشرك والمشركين، والعبد الصادق في إيمانه ومحبته لخالقه ليس له إلا أن يتابع الخالق سبحانه وتعالى فيما يحب ويبغض؛ فيحب الإيمان والمؤمنين، ويبغض الشرك والمشركين، أيّاً كان هؤلاء المشركين، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة: 22. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ ؛ اتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند ربه ﴿يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آل عمران: 31. فعلى قدر المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم ولسنّته، على قدر ما تكون محبة العبد

لربه، ومحبة الرب سبحانه لعبده .. فإذا انتفت مطلق المتابعة، انتفت مطلق المحبة، وبانتفاء مطلق المحبة ينتفي مطلق الإيمان .. فالمحبة ليست مجرد زعم اللسان، وإنما برهانها وعلامتها المتابعة، والمتابعة وحسب.

ونحو ذلك، قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ كل هذه العوالق، والجواذب، والروابط مجتمعة، إذا كانت ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِّ وَرَسُولِهِ﴾ ؛ أي أحب إليكم من طاعة ومتابعة أمر الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة: 24. خص الجهاد في سبيل الله من مجموع الطاعات، لنفور ذوي النفوس الضعيفة منه، وثقله عليهم.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجَد حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله، وأن يَكره أن يعودَ في الكفرِ بعد أن أنقذه الله منه كما يَكرهُ أن يُقذَفَ في النار " متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "أوثقُ عُرى الإيمان ــ أي أشدها وأمتنها وأصدقها ــ: الموالاةُ في الله، والمعاداةُ في الله، والحبُّ في الله، والبُغضُ في الله عزَّ وجل" [43].

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن أعطَى للهِ، ومنع للهِ، وأحبَّ للهِ، وأبغضَ للهِ، وأنكحَ للهِ، فقد استكمل إيمانَه" [44]. وقوله "وأنكَحَ للهِ"؛ أي تزوّج، وزوَّج أبناءه، ومن يلي أمرهم وفق شرع الله، وطاعة لله.

وقال ﷺ: "لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدهِ وولده، والناسِ أجمعين" متفق عليه. وفي رواية مسلم: "لا يؤمنُ عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهلِه ومالِه والناسِ أجمعين". وعلامة ذلك وبرهانه، تظهر في الطاعة والمتابعة.

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: "لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِك"، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: "الآن يا عمر" البخاري. أي الآن عرفت الحق فنطقت به.

---

[43] صحيح الجامع: **2539**.

[44] أخرجه الترمذي، وأحمد، صحيح سنن الترمذي: **2521**.

أما الذين يصرفون لله تعالى الركوعَ والسّجودَ، والنّسك، ويَصرفون لغيره الطَّاعةَ والمحبَّةَ .. فهؤلاء مشركون .. ولهم حظ كبير من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يوسف: 106.

قال ابن تيمية في الفتاوى 10/ 607: "لا يجوز أن يُحَب شيئ من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالَم إنما يجوز أن يُحَب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يُحَب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء: 22. فإنَّ محبَّة الشيء لذاته شرك؛ فلا يُحب لذاته إلا الله؛ فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه لم يُحَب لأجله، فمحبته فاسدة" ا- هـ.

موافقة المحبوب في البغض: لا توجد محبَّة من غير بغض، ولا تكتمل المحبة، ولا تصح حتى توافق المحبوب فيما يبغض ويكره كما توافقه فيما يحب؛ فتبغض ما يبغض، وتحب ما يُحب .. فالبغض شُرع لتحقيق المحبة، ومتابعة المحبوب فيما يبغض .. فالبغض وسيلة لتحقيق غاية المحبّة، ومعرفة حقيقة المحبة .. أما دعاة المحبة، والمحبة وحسب، ولا شيء غير المحبة .. فهؤلاء أولاً كذّابون، ومتناقضون، ودعواهم لا واقع لها، بل واقعهم بخلافها، يقولون مالا يفعلون .. وثانياً ما عرفوا معنى المحبة ومتطلباتها، إذ

كيف تصدق في محبة حبيب، وأنت تحب ما يبغض، وتبغض ما يُحب، فهذا غير ممكن ولا يُعرف في عالم المحبة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَّ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران: 32. ﴿وَاللهُّ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ البقرة: 276. ﴿وَاللهُّ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران: 57. ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ الأنفال: 58. ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المائدة: 87. ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام:141. ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ النحل: 23. وبالتالي فأنت إن كنت صادقاً في محبتك الله، يجب أن لا تحب الكافرين، ولا المشركين، ولا الظالمين، ولا المفسدين، ولا المستكبرين، ولا الخائنين، ولا المعتدين .. تبعاً وموافقة لبغض الله لهم، وعدم محبته لهم، ومحبتك لهم يدمغك بالكذب والتناقض في دعواك محبة الله، ويخرجك من زمرة المحبين لله، وممن عناهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِّ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس:62.

وكما أن الله تعالى لا يحب المشركين والكافرين، فإن المشركين والكافرين لا يحبون الله، ولا يحبون من يحب اللهَ تعالى، ويفرده بالمحبة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُّ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الزمر: 45. وقال تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُّ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا

فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ غافر: 12. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الصافات:35.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ البقرة: 217. ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آل عمران: 118. ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ آل عمران: 120. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ المائدة: 82. وغيرها كثير من الآيات التي تتكلم عن عداوة وبغض الكافرين والمشركين لله، ولرسوله، وللمؤمنين.

وأكثر ما يبغض الكفار والمشركون في الإسلام والمسلمين، عقيدة التوحيد؛ لا إله إلا الله، وعقيدة الجهاد، وعقيدة الولاء والبراء، والموالاة والمعاداة في الله .. ثم بعد ذلك يتفاوتون في درجة التسامح مع بقية شعائر الإسلام .. ومن رضي أن يُجاملهم ويتابعهم فيما يبغضون ويكرهون من الإسلام والمسلمين، يخرج من دائرة الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ محمد: 25-26.

العِلّة في أن ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ : هي أنّ مِن مُقتضيات أسماءِ الله الحسنى، وصفاتِه العُليا أن لا يُقبَل من العبادة إلا ما كان على وجه المحبّة، والرّضا، والاختيار، وأيما عبادة لا تصدر عن محبّةٍ ورضا، واختيار، لا يريدُها اللهُ تعالى، ولا يقبَلُها من عباده .. ولو كان الله تعالى يريد من عباده أن يعبدوه على أي وجه كان؛ على وجه المحبة أو الإكراه، على وجه الرضا أو عدمه، لأرسل لهم آية كونية ظاهرة تظل أعناقهم لها خاضعين طيلة حياتهم، كما قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ الشعراء: 4. لكن الله تعالى لا يريد أن يحملهم على العبادة والخضوع كرهاً وقهراً؛ فأسماؤه الحُسنى، وصفاته العُليا، وما تستحقه من تألّه، وإجلالٍ، ومحبّةٍ لذاتها، تأبى إلا أن يعبده العباد عن محبة وطواعية، ورِضا .. والمنافقون لما عبدوا الله تعالى على غير وجه الرضا والمحبة؛ عبدوا الله وهم لعبادته كارهون، لم يقبل الله منهم العبادة، وجزاهم على نفاقهم الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ النساء: 145.

وقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة: 256. يُرادُ به معنيان، وفريقان: أولهما؛ لا إكراه لغير المسلم على أن يكون مُسلماً. والثاني: خاصٌّ بالمسلمين؛ فلا يُكرَه مسلمٌ على اختيار فقهي محدّد من جملة الخيارات المسْتسَاغة والمعتبرَة شرعاً؛ لما يتنافى ذلك مع عبادة

المحبة الواجبة، والتي هي غاية الغايات، وغاية العبادات كلها، بل والغاية من الوجود كله.

يقول ابن القيم في كتابه روضة المحبين: "العالَم العلوي، والسُّفلي إنما وجد بالمحبّة ولأجلها، وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم، وحركات الملائكة والحيوانات، وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب" ا- هـ.

مسألة: إذا كان القلبُ يجب أن يكون فارغاً إلا من محبة الله، فكيف نفسر وجود محبوبات أخرى في القلب، تميل إليها النفس، كحب الآباء، والأبناء، والإخوان، والزوجات، والمال، والأوطان، وغير ذلك ..؟

أقول: المحبوب لذاته؛ لأنه هو هو؛ الذي تُعقد فيه الموالاة والمعاداة، والحب والبغض، هو الله تعالى وحده .. هذا المعنى للحب والمحبة هو الذي يجب أن يمتلئ به القلب، من دون أن يتسع معه شيئاً لمحبوب آخر .. وما سواه من المحبوبات مهما علا قدرها، بما في ذلك محبة الأنبياء والصالحين، والمؤمنين، والأبناء، والآباء، ومن تقدم ذكرهم في السؤال، فإنها تُحَب لله، وفي الله، وطاعة لله .. وحبها يتواجد في القلب من هذا القبيل، وبهذا الوصف .. إذ لا يجوز أن تُحَب مع الله، أو من دون الله؛ فهذه محبة شرك .. وعلامة ذلك أن درجة محبتهم في القلب تتذبذب صعوداً وهبوطاً بحسب المتغيرات

والتقلبات التي تطرأ عليهم، فمن طرأ عليه الفسق بعد الاستقامة، محبته تضعف، وتنقص في القلب، ومن طرأ عليه الكفر والشرك بعد الإيمان محبته تنعدم من القلب وتنتفي، ومن يطرأ عليه الاستقامة بعد الفسوق محبته في القلب تزيد، وكذلك من ينتقل من الكفر إلى الإيمان تصرف له المحبة بعد أن انتفائها .. فالمحبة بهذا الشكل وهذا التوصيف محبة صحيحة، وهي بذلك تكون لله، وفي الله .. ليست محبة مع الله .. أمَّا إن قيل: لا؛ فنحن نحبهم كافرين ومؤمنين، وصالحين وطالحين .. موحدين ومشركين سواء .. ومحبتنا لهم ثابتة لا تتغير بتغير أحوالهم وصفاتهم .. فهذه المحبة محبة فاسدة وباطلة ليست لله، وهي محبة مع الله، ومن دون الله، وهي محبة شرك.

والأنبياء والصالحون برآء من شرك المحبّة ــ وكل شرك ــ وممن يصرف لهم شيئاً من هذا النوع من المحبة الشركية، فهم لا يرضون ذلك، وينهون عن ذلك أشد النهي، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آل عمران: **79-80**. وإذا كان هذا لا يصلح للأنبياء والرسل، فغيرهم من باب أولى أن لا يصلح لهم أن يطالبوا الناس بعبادتهم من جهة المحبة، أو الطاعة من دون الله، أو مع الله، كما كان يفعل ذلك الأحبار والرهبان، ومن نهج نهجهم.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا تُطْرُونِي، كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فإِنَّما أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ" البخاري. وقوله: "لَا تُطْرُونِي"؛ أي لا تبالغوا ولا تُغالوا في مدحي وإطرائي؛ فترفعوني إلى مقام الألوهية أو الربوبية، كما فعلت النصارى مع عيسى بن مريم عليه السلام، وهو من شركهم وإطرائهم براء .. فأنا أنهاكم عن ذلك، وقولوا لي: "عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ".

حُب الأشياء ثلاث درجات: وأعني بالأشياء كل ما يتعلق بالشهوات، والدنيا وزينتها، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عمران: 14.

حُبٌّ مُباح؛ وذلك عندما يتم التعاطي والتعامل مع هذه الأشياء باعتدال، وفق شرع الله تعالى، ووفق طاعته وأمره، وتوجيهه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: 32. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص: 77. وقال تعالى: ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف: 31.

وحبٌّ مكروه ومحرّم؛ وذلك عندما يتم التعلق بهذه الأشياء تعلقاً زائداً عن حد الاعتدال، والذي يكون غالباً على حساب طاعة الله تعالى وعبادته، وحساب حقوق أخرى.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أحبِبْ حبيبَكَ هونَاً ما، عَسى أن يَكونَ بَغيضَكَ يوماً ما، وأبغِضْ بغيضَكَ هوناً ما، عسَى أن يَكونَ حبيبَكَ يومَاً ما". ومن أهل العلم من صححه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا يكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، ولا بُغضُكَ تَلَفًا؛ إذا أحبَبتَ كَلِفْتَ كَلَفَ الصَّبِيِّ، وإذا أبغضْتَ أحببتَ لصاحبِك التَّلَفَ".

وحبٌّ شركي؛ وذلك عندما تتمكن هذه الأشياء ــ أو بعضها ــ من القلب؛ فتصبح محبوبة لذاتها، يُعقد فيها الولاء والبراء، والحب والبغض، ويدور معها حيثما تدور!

صور نُكابِدُها ونُعايشها من الموالاة، تُصرَف لغير الله: لا ينبغي أن ننهي الحديث عن شرك المحبّة من دون أن نشير إلى بعض الأنواع والصور التي تُصرَف فيها الموالاة والمحبّة لغير الله تعالى، حتى نكون على بينة منها، وحتى نحذَرَها، ونُحذِّرَ منها، ومن

قبيل العمل بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأنعام: 55.

منها: طغاة الحكم: الذين يجعلون لأنفسهم مقاماً فوق المسائلة والمحاسبة؛ فهم القانون، وفوق القانون .. يأبون على شعوبهم ومن تحت حكمهم إلا الموالاة المطلقة، ولذواتهم، يوالون ويُعادون فيهم، يحاربون من حاربهم، ويُسالمون من سالمهم، في الحق والباطل سواء .. ومن يُعرف عنه أنه غير صادق في الولاء والمحبة لهؤلاء الطغاة الظالمين فمصيره السجن، أو القتل، أو التهجير، أو التضييق عليه في معاشه، وحركته، وحقوقه .. وما أكثر هؤلاء الطغاة في زماننا، ولا شك أن من يصرف لهم هذا الحق طواعية من غير إكراه ولا تقية، فهو منهم، وحكمه حكمهم، وهم في الوزر سواء، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ القصص: 8.

ومنها: الحزب، وزعيم الحزب: الذي يحمل أتباعه على الولاء المطلق له، ولمسمى حزبه، فالحق ما يره الزعيم حقاً، وما جاء به حزبه، والباطل ما يراه الزعيم باطلاً، وما جاء به حزبه .. يوالون في الحزب، والانتماء الحزبي، ويُعادون فيه؛ فمن كان منتمياً إلى الحزب، ومن أنصاره، فله كل الحقوق، وكل الحب والموالاة، والوصل والعطاء، ولو كان من أفسق وأرذل وأفسد الناس، ومن لم يكن من الحزب، ولا من أنصار الحزب،

فليس له شيئا من تلك الحقوق، وتلك الموالاة، بل له عكس ذلك، ولو كان من أتقى أهل الأرض وأصلحهم .. فالمحور الذي يُعقد عليه وفيه الولاء، والبراء، والحب والكره، والوصل والقطع، والعطاء والمنع، هو الحزب، وزعيم الحزب .. وما أكثر الأحزاب المعاصرة التي تنشأ هذا المنشأ الخاطئ الآثم، وتربي أتباعها وعناصرها على هذا المنهج الخاطئ .. فالحذر، الحذر، عباد الله؛ فالقضية لها مساس بصريح الإيمان وصحيحه، كما تقدم.

فإن قيل: كيف يكون التعامل معه، وغيره من الأحزاب ..؟

أقول: ما تقدم ذكره؛ نوالي فيه الحق ونباركه، ونثني عليه خيراً، ونجافي فيه الباطل، ونبرأ منه، ونثني عليه شراً .. ونشهد على المحسن منهم بأنه محسن، وعلى المسيئ بأنه مسيئ، وننصف الحق من الحزب، ومن زعيم الحزب، وأنصار الحزب، وهكذا نتعامل مع جميع الأحزاب والتجمعات، وفي الحديث: "واشهدوا على المحسنِ بأَنَّهُ محسنٌ، وعلى المسيءِ بأَنَّهُ مسيءٌ"[45]. أيّاً كان هذا المحسن، وأيّاً كان هذا المسيء.

---

[45] السلسلة الصحيحة: 457.

قال ابن تيمية في الفتاوى 11/ 92: "وأما رأس الحزب؛ فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان؛ فهم مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا؛ مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمّن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل؛ فهذا من التفرّق الذي ذمّه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والإئتلاف، ونهيا عن التفرق والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان" ا- هـ.

ومنها: التعصب للمذهب الفقهي وإمامه: المذاهب والمدارس العلمية الفقهية، والتي منها المذاهب الأربعة، ثروة علمية فقهية ضخمة، نستفيد منها، ونترحم على علمائها، وهي محل إعجاب وتقدير، واحترام .. فهذا جانب محمود لا إشكال عليه .. وإنما الإشكال والمشكل هو التعصب لهذه المذاهب ولأسماء أئمتها، والتعامل معهم بشيء من العصمة، وعقد الولاء والبراء، والحقوق والواجبات فيها .. والتعصب للمذهب ولقول المذهب، وصاحب المذهب، في الحق والباطل سواء .. وعلى حساب النص الشرعي من الكتاب والسنة، فيردون القرآن، والسنة، بقول المذهب، ومشايخ المذهب .. وقد مرت حقبة مقيتة على بعض بلاد المسلمين، أن الشافعي لا يصلي خلف

الحنفي، ولا الحنفي خلف الحنبلي .. ولكل أهل مذهب محرابهم الخاص بهم في المسجد، وحلقاتهم، وتجمعاتهم الخاصة، فكانت تُقام أربع جماعات في مسجد واحد، وفي وقت واحد، وكان أهل المذهب لا يزوّج ولا يتزوج من أهل المذهب الآخر، ولا يرى صحة عقد نكاحه .. وهذا لا شك أنه من التفرق في الدين، والتعصب المذموم الذي نهينا عنه .. والأئمة الكبار لا شك أنهم برآء من هذا التعصب، وهذا الجهل من الأتباع .. وهؤلاء المتعصبة الجهلة لهم حظ كبير من قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ التوبة: 31. فليس لليهود والنصارى كل مرّة، ولنا كلَّ حلوة!

ونحو ذلك، ما هو موجود وسائد في بعض الطرق الصوفية، التي تربي المريد على الولاء المطلق، والطاعة المطلقة العمياء للطريقة، ولشيخ الطريقة، وأن يكون المريد بين يدي شيخه كالوليد الرضيع بين يدي مرضعته، مسلوب الإرادة والتفكير .. فلا يرى الحق والباطل إلا من خلال شيخه .. فيوالي ويُعادي فيه .. حتى لو خالف الشيخ الشريعة، فليس للمريد أن يعترض، فالشيخ عنده علم الحقيقة، وهو أشمل وأكبر وأعظم من علم الشريعة .. وهو مالم يُحط به المريد والتلميذ علماً .. ويستدلون بقصة الخضر مع نبي الله موسى عليهما السلام .. وبقاعدتهم الشهيرة: "لا تعترض، فتنطرد"!

قال ابن تيمية في الفتاوى 28/ 19: "كون الأستاذ يريد أن يوافقه تلميذه على ما يريد؛ فيوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه مطلقاً، وهذا حرام ليس لأحدٍ أن يأمر به أحداً، ولا يُجيب عليه أحد، بل تجمعهم السنّة وتفرقهم البدعة، يجمعهم فعل ما أمر الله ورسولُه، وتفرق بينهم معصية الله ورسوله .. ومن حالفَ شخصاً على أن يوالي من والاه، ويعادي من عاداه، كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان، ومثل هذا ليس من المجاهدين في سبيل الله تعالى، ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون مثل هؤلاء من عسكر المسلمين، بل هؤلاء من عسكر الشيطان، ولكن يحسن أن يقول لتلميذه: عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسولَه، وتُعادي من عادى الله ورسولَه، وتعاون على البر والتقوى، ولا تعاون على الإثم والعدوان" ا- هـ.

ومنها: القومية: أعني بذلك التعصّب القومي الذي بموجبه يُعقد الولاء والبراء، والحب والبغض، وتقسّم الحقوق والواجبات؛ فمن كان من قومي عربياً فله كل الولاء، والحب، والحقوق .. ولو كان أكفر من أبي لهب، وأبي جهل، ومسيلمة الكذاب .. ومن لم يكن عربياً، فليس له شيء من تلك الحقوق وتلك الموالاة، ولو كان من أتقى وأصلح أهل الأرض .. فهذا لا اعتبار له في موازين العصبيات والولاءات والانتماءات القومية .. وقس على ذلك التعصب للقوميات الأخرى، التركية، والكردية،

والفارسية، وغيرها من القوميات السائدة .. وشياطين الأنس والجن يرتضون منك أي شيء تَعقِدَ فيه الموالاة والمعاداة .. إلا "الله"؛ فلا!

يرتضون منك أي شيء تَعقِدَ فيه الموالاة والمعاداة، والحب والبغض، يبعدك عن الله وعن الإسلام .. وعن الأخوة الأرحب، والأوسع، والأوثق؛ أخوة الإيمان والإسلام!

وهذه جاهلية عمياء، حذرنا الإسلام منها، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: 10. والقومجيون يقولون: لا؛ إنما القومجيون إخوة ..!

والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ التوبة: 71. والقومجيون يقولون: لا؛ القومجيون بعضهم أولياء بعض ...!

وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: كانَ بَيْنِي وبيْنَ رَجُلٍ مِن إخْوَانِي كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بأُمِّهِ، فَشَكَانِي إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ، فَلَقِيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: يا أَبَا ذَرٍّ، إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ومَن قاتَلَ تَحْتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أوْ يَدْعُو إلى عَصَبَةٍ، أوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فقِتْلَةٌ جاهِلِيَّةٌ" مسلم.

وما تقدم أعلاه لا يتنافى مع معنى أن يحب المرء قومه في الحق والخير، ولما فيهم من خصال خير، وأن يتمنى لهم الخير، وينصح لهم، وأن يذود عنهم في الحق والخير ..

فهذا شيء حق ومحمود لا خلاف عليه، وما أشرنا إليه أعلاه شيء آخر ومختلف .. لا يجوز الخلط بينهما.

ومنها: الوطنية، والولاء الوطني: وهو ولاء محدَث؛ لم تكن الشعوب تعرفه أو تتكلم عنه قبل مائة عام، أو أكثر بقليل، وصورته المعمول بها في كثير من الأوطان، والأقاليم والأقطار المعاصرة، عقد الموالاة والمعاداة، والحب والبغض، والحقوق والواجبات، على أساس الانتماء الوطني، الإقليمي، والحدود الجغرافية للقطر أو الدولة، بغض النظر عن الدين، وعن الإيمان، أو الكفر .. وعن الاستقامة أو الصلاح والفساد .. فالأخوة والموالاة والحقوق والواجبات تنعقد في الوطن ولمن هم ضمن حدود الوطن الجغرافية، ولو كان من أكفر، وأظلم، وأفسق الناس، ومن كان من خارج هذه الحدود ــ ولو كان من أتقى وأصلح وأعلم أهل الأرض ــ ليس له حقوق وصلاحيات ابن الوطن، وليس له من الموالاة ما لابن الوطن.. فأصبح الوطن بهذا المعنى وثناً يُعبَد من دون الله.

فكل أهل قطر ووطن ينكمشون في وطنهم وقطرهم، ويتقوقعون عليه وحوله .. وينشدون السلامة والأمن والأمان والرخاء لوطنهم .. وبعد ذلك لا يضيرهم شيئاً لو عمَّ الخراب، والدمار .. والفقر والجوع والمرض بقية الأوطان، والأمصار، والأقطار ..

المهم وطني، والكل يغني "وطني" .. وكثير من الشعوب وللأسف ــ بحكم التربية الوطنية، وضغط وسائل إعلام الطغاة، والعادات الخاطئة ــ قد رضيت بهذه القسمة الظالمة، والباطلة، وتشبعت بها .. واستبدلت أخوة الإيمان والإسلام بأخوّة الوطن، والأوطان!

جرّب مثلاً أن تتكلم بصيغة النقد عن السودان أمام المصري، أو السوري، أو التونسي أو أو .. الكل قد يستسيغ نقدك وكلامك، ويبادلك الرأي، ولا ينكر عليك .. لكن ــ إن كنت شجاعاً ومستعداً للمشاجرات والخصومات، وفج الرؤوس! ــ تكلم عن مصر بما يسيء أمام المصري، أو عن تونس أمام التونسي، أو عن الجزائر أمام الجزائري، أو، أو .. بل أحدهم قد يستسيغ منك أن تطعن بالإسلام والمسلمين بشكل عام، ولا يستسيغ ولا يقبل منك أن تتكلم عن أهل قطره وبلده .. وهذا لا شك أنه من الغلو المنهي عنه!

ما تقدم أعلاه لا يتنافى ولا يتعارض مع حب المرء لوطنه؛ منبت ومسقط رأسه، أو الدفاع والذود عن وطنه، وعن الأوطان محضن الحقوق والحرمات ضد عدون الأعداء في سبيل الله .. فهذا المعنى حق، لا خلاف عليه، وقد تقدمت الإشارة إليه، فالنفوس قد فطرت على حب أوطانها، وأماكن نشأتها، ووجودها، والذود عنها ..

والمعنى الذي أشرنا إليه أعلاه؛ وهو عقد الموالاة والمعاداة، والحب والبغض، على أساس الانتماء الوطني الجغرافي، شيئ آخر، وهو لا يجوز!

والنبي صلى الله عليه وسلم لّما أخرِج من مكة، التفت إليها، وقال: "ما أطيبَكِ من بلَدٍ وأحبَّكِ إلَيَّ، ولولا أنَّ قومِي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرَكِ" [46]. فمكة ــ لمكانتها الدينية ــ حبيبة إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى قلب كل مسلم، لكن لما كانت سلامة الدين والعقيدة تقتضي منه أن يهاجر من الأرض التي أحب، وعاش فيها، هاجرَ وآثر وقدم سلامة الدين، والعقيدة، على الأرض التي أحب، ليعطي بذلك درساً بليغاً لأمته: أن سلامة العقيدة أولاً، ولا شيء يتقدم على سلامة العقيدة، والإيمان، والإسلام، كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ العنكبوت: 56. فالله تعالى قد وسَّع الأرضَ، لتحقيق سلامة العبادة، والدين، فإذا ضاقت بقعة من الأرض؛ فلم تعد تتسع لسلامة العقيدة والعبادة والتوحيد، شُد الرحال إلى الأرض التي يتحقق فيها ذلك، ولأجل تحقيق هذا المعنى فالهجرة باقية ما بقيت السماوات والأرض، وإلى قيام الساعة.

---

[46] صحيح الجامع: 5536.

ومنها: القبليّة: أي الولاء للقبيلة، ولشيخ القبيلة، وهو ولاء محمود ما دام في الحق، والمعروف، وفق ضوابط وتوجيهات الشرع .. أمّا أن يُعقَد الولاء والبراء، والحب والبغض، على أساس الانتماء القبلي، ولمجرد الانتماء للقبيلة، في الحق والباطل، وفي الخير والشر سواء، فتوالَى القبيلة لذاتها، وتُنصَر ظالمة كما تُنصر مظلومة، وعلى مبدأ الشاعر الجاهلي، القائل: ما أنا إلا من غزيَّة إن غوت غويتُ، وإن ترشد غزيَّةُ أرشُدِ .. فهذه موالاة باطلة، وجاهلية مقيتة، وشرك.

وفي الحديث، فقد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ الإسلامَ بَدأ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بَدأ فطُوبَى للغرباءِ"، قيل: ومن الغرباءُ؟ قال: "النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ" [47] . أي الذين يُنتزَعون نزعاً من قبائلهم وعشائرهم، فيخرجون منها، ويسيحون بعيداً عنها، بسبب إيمانهم .. فيتلاقون فيما بينهم ــ على اختلاف قبائلهم ومنابتهم وأوطانهم ــ ليشكلوا قبيلة جديدة؛ اسمها قبيلة الغرباء والإيمان.

وقال ﷺ: "ليبعثنَّ اللهُ أقواماً يومَ القيامةِ في وجوهِهِم النور، على منابِرِ اللُّؤلُؤِ، يغبِطُهُم الناسُ، ليسوا بأنبياءَ ولا شُهداءَ". قال: فجَثى أعرابيٌّ على رُكبتيْهِ، فقال: يا رسولَ الله جَلِّهم لنا نعرِفُهم؟ قال: "هم المُتحابُّونَ في الله من قبائل شتَّى، وبلادٍ شتَّى

---

[47] أخرجه أحمد في المسند، وصححه أحمد شاكر في التخريج: 5/ 296.

يجتمعون، على ذكرِ الله؛ يَذكرونَه"[48]. وقوله: "من قبائل شتَّى، وبلادٍ شتَّى يجتمعون"؛ أي الذي جمعهم ليس الانتماء إلى القبيلة أو الوطن، أو الدولة التي ينتمون إليها؛ فكل منهم من قبيلة مختلفة، ومن وطن مختلف، ومن دولة مختلفة، وربما له لغة مختلفة .. وإنما الذي جمعهم الإيمان والإسلام، وحب الله عز وجل.

ومنها: الإنسانيّة: وهو شعار ماسوني مُحدَث لم يكن معلوماً أو منتشراً قبل قرنٍ من الزمان؛ يريدون منه عقد الموالاة والمعاداة والحب والبغض في الإنسانية، ولمجرد الانتماء لجنس الإنسان، وللأسرة الإنسانية، بغض النظر عن الدين، والخلق، والعمل، فيتساوى في النظرة الإنسانية أكفر وأفجر وأظلم الخلق مع أتقى، وأصلح أهل الأرض .. ويتساوى الأنبياء مع أعدائهم .. حتى باتت الإنسانية غاية وعنواناً لكثير من الأعمال والأنشطة الخيرية؛ فيُقال: هذا عملٌ إنساني، وهذا العمل للإنسانية وفي سبيل الإنسانية .. ومن أجل الإنسانية .. ونحن أخوة في الإنسانيّة .. الإنسانيّة تجمعنا .. يستعيضون بذكر الإنسانيّة عن ذكر الله، وعن صرف الأعمال لله، وحتى لا يُقال هذا العمل لله، وفي سبيل الله!

---

[48] رواه الطبراني، صحيح الترغيب والترهيب: **3025**.

وبقليل من التأمل نجد شعار "الإنسانيّة"، شعار كاذب، غير واقعي، لا أحد يلتزم به؛ لأن دونه ولاءات وأهواء متعددة وكثيرة ــ قد ذكرنا بعضها ــ كلها تحيل بين الناس وبين تحقيق هذا الشعار في حياتهم .. وأول وأكثر من ينقض هذا الشعار ويكذبه هم الذين رفعوه وأحدثوه .. وواقعهم يشهد لهم بذلك .. فهم من أكثر الناس عداوة للإيمان وأهل الإيمان .. وإنما رفعته شياطين الإنس والجن من قبيل التشويش على عقيدة التوحيد والإيمان، وهدم الدين، ومن قبيل مكر الليل والنهار، وصرف الناس عن الله، وعن عقد الموالاة والمعاداة، والحب والبغض في الله، ولله.

ما تقدم لا يمنع، ولا يعني انتفاء إرادة الخير للناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: **107**.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ آل عمران: **110**. فأمة الإسلام خير النّاس للناس.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خيرُ النّاسِ أنفَعُهُمْ لِلناسِ"[49]. وقال صلى الله عليه وسلم: "أحبُّ الناسِ إلى

[49] صحيح الجامع: **3289**.

اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ" [50] . هذا هو الميزان والمقياس الذي من خلاله يُعرَف خير الناس، وأحبُّ الناس إلى الله.

وقال ﷺ: "اتقِ المحارمَ تَكُن أعبدَ الناس، وارضَ بما قسمَ اللهُ لكَ تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارِكَ تكن مؤمِناً، وأحبَّ للناس ما تُحبُّ لنفسِكَ تكن مسلماً" [51] . وقال صلى الله عليه وسلم: "أشدُّ الناسِ عذاباً للناس في الدُّنيا، أشدُّ الناسِ عَذاباً عندَ الله يومَ القيامَة" [52] . فهذا المعنى ــ وهو إرادة الخير للناس ــ حق، لا ريب فيه، وهو من صميم تعاليم ديننا الحنيف، ومعنى أن تُعقد الموالاة والمعادة، والحب، والبغض، في الإنسانية، وللإنسانية، والانتماء إلى الأسرة الإنسانية .. هو شيء آخر .. ومعنى آخر ومختلف، لا يجوز الخلط بينهما؛ وهو باطل وشرك بالله تعالى، فاحذروه!

ودعاة الإنسانيّة حتى يمرروا الجانب الباطل لإنسانيتهم، ودعوتهم، يخلطونه بالجانب المحق الذي أشرنا إليه أعلاه .. فيلتبس الأمر على كثير من الناس، ويُشكل عليهم، حتى بات يصعب عليهم فهم هذا الشعار "الإنسانية" على حقيقته، وما المراد

---

[50] السلسلة الصحيحة: **906**.

[51] رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان، صحيح الجامع: **100**.

[52] صحيح الجامع: **998**.

منه، والتفريق بين جانب الباطل فيه من الجانب الحق، فضلاً عن أن يرفضوه؛ خشية أن يرموا باللاإنسانية، وبالتوحّش، والتَّخلف، وأنهم ضد الإنسانيّة، ولا يريدون الخير والرحمة للناس وللإنسانية!

ومنها: المال، والمناصب الوظيفيّة: العنوان قد لا يروق للبعض، ولكنه واقع نعايشه ونكابده؛ تأملوا ــ إن شئتم ــ حال كثير من الناس، تجدونهم يوالون ويُعادون، وبرضون ويسخطون، ويحبون ويبغضون، ويعقدون الولاء والبراء في المال، ومن أجل المال، وفي المناصب الوظيفية، ومن أجلها .. وأحدهم من أجل راتب من المال، أو منصب وظيفي، لديه استعداد أن يوالي الطغاة الظالمين، وأن يسكت عن ظلمهم وكفرهم، ويجادل دونهم، ويُقاتل معهم ــ لو دعى الأمر ــ ضد الإسلام والمسلمين .. وأن يكون جندياً من جنودهم .. ولو سألته، وراجعته، لقال لك: المال، والمعاش، والخصائص الماديّة التي أتمتّع بها، ولكي أحافظ على منصبي الوظيفي، ومستواي المعيشي، أو لعلني أترقى في الرتبة، وفي عملي الوظيفي، ونحو ذلك!

تُنتهك حرمات الله، فلا يُبالي ولا يكترث، ولا يُحرّك ساكناً، فإذا ما اقتربت من معاشه، وماله، ومنصبه الوظيفي .. انتفض وثار، وأنكر باليد، واللسان، والقلب معاً ..

وإذا ما وُجدت ضرورة للاختيار بين المال، ومصلحة المال، وبين طاعة الله تعالى، تراه يختار ويقدم سلامة المال!

فالمال والمنصب الوظيفي في هذه الحالة، وهذا التوصيف معبود من دون الله تعالى، ومحبوب لذاته؛ تُعقد فيه الموالاة والمعاداة، والرضى والسخط، والحب والكره من دون الله، وهؤلاء يُحمل عليهم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ النحل: 107. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِّ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُّ بِأَمْرِهِ وَاللهُّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة: 24.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ ــ كساء أسود له خطوط ــ إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ" البخاري. وهذا دعاء عليه بالخيبة والخسران، والانقلاب والانتكاس على رأسه، وأن لا يجد معيناً على مُصابه، حتى لو شِيك بشوكة، فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما ذِئبانِ جائعانِ أُرْسِلا في غنَمٍ، بأفسدَ لَها من حِرصِ المَرءِ علَى المالِ والشَّرَفِ لدينِهِ" [53] . ومن الحرص على الشرف؛ الحرص على الزعامة والرياسة، والمناصب والوظائف التي يتمايز بها عن الناس، ويستعلي عليهم!

ما تقدم أعلاه لا يعني ولا يفيد أن كل من أحب المال وعمَلَه، فهو تحت طائلة الوعيد؛ لا، فالناس فطرت على حب المال وزينة الحياة الدنيا، فهذا المعنى ليس هو المراد من كلامنا أعلاه، وإنما المراد أن يكون المال محبوباً لذاته، وأن يُقدم على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أو أن يكون عائقاً ومانعاً من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عمران: **14**. وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ آل عمران: **92**. فالآية الكريمة أثبتت حب الإنسان للمال، ولم تُنكر عليه، فلا ضير في ذلك، لكن الضير كل الضير؛ أن يكون هذا الحب للمال مانعاً من الإنفاق في سبيل الله، أو أن يكون عائقاً يمنع من طاعة الله، أو يُقدّم على طاعة الله!

---

[53] صحيح سنن الترمذي: **2376**.

ومنها: الخمر، والمخدرات: وذلك عندما يصبح المرء مدمناً على الخمر والمخدرات، فتراه أسيراً، وعبداً مملوكاً لها ولمن يملكها، لا يستطيع الفكاك من سلطانها، فيوالي ويعادي فيها، ويجعل من نفسه، ودينه، وماله، وعِرضه، وعزته وكرامته عرضة للابتزاز مقابل تأمين الجرعات التي يحتاجها من الخمر والمخدرات، أو لمن يؤمنها له .. ولا فكاك له إلا أن يُطيع ويتابع مقابل تأمين جرعاته من المخدرات، والمسكرات!

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مُدمنُ الخمرِ كعابدِ وثَنٍ" [54]. فهو كعابد وثن للمعنى الآنف الذكر أعلاه، فكما أن عابد الوثن تراه مشدوداً ومنقاداً لعبادة الوثن، كذلك المدمن على الخمر والمخدرات، فهو منقاد ومشدود لها لا فكاك له من سلطانها!

وفي رواية: "مُدمنُ الخمرِ إن مات لقيَ اللهَ كعابدِ وَثَنٍ" [55]. وفي رواية أشد خطورة، وأكثر دلالة على عبودية المدمن للوثن: " شارِبُ الخمْرِ كعابِدِ وثن، وشارِبُ الخمْرِ كعابِدِ اللَّاتِ والعُزَّى " [56]. والمخدرات أشد أثراً، وفتكاً، وخطراً من الخمر.

---

[54] السلسلة الصحيحة: 2/ 288.

[55] السلسلة الصحيحة: 677.

[56] صحيح الجامع: 3701.

كم هي القصص التي سمعناها؛ والتي تفيد تجنيد العدو لكثير من الأشخاص ضد دينهم، وبلدهم، وشعبهم، مستغلين حاجتهم للمخدرات، ومقابل جرعات من المخدرات .. وربما الإدمان على المخدرات والمسكرات، قد يحملهم على ارتكاب جرائم أخرى، كالقتل، والنهب .. وترك الصلاة، وغير ذلك.

فهي ــ من هذا الوجه ــ أم الخبائث، ومؤدية إلى الوقوع في الخبائث، كما في الحديث: "الخمرُ أمُّ الخَبائِثِ، ومَنْ شربَها لمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ صَلاةً أربعينَ يومًا، فإنْ ماتَ و هيَ في بَطْنِهِ ماتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً" (57).

وعن عثمانَ بنِ عفانَ رضي الله عنه، قال: اجتنِبوا الخمرَ؛ فإنها أمُّ الخبائث؛ إنه كان رجلٌ ممن خلا قبلَكم تعبَّدَ، فعلِقَتهُ امرأةٌ غوِيَّةٌ، فأرسلتْ إليه جاريتَها، فقالتْ له: إنَّا ندعوكَ للشهادةِ، فانطلقَ مع جاريتِها، فطفِقَت كلما دخل بابًا أغلقتْهُ دونَهُ، حتَّى أفضَى إلى امرأةٍ وضيئةٍ، عندها غلامٌ وباطيةُ خمرٍ ــ إناء كبير من الخمر ــ، فقالت: إني والله ما دعوتُكَ للشَّهادةِ، ولكنْ دعوتُك لتقَعَ عليَّ، أو تشربَ من هذه الخمرةِ كأساً، أو تقتلَ هذا الغلامَ، قال: فاسقيني من هذا الخمرِ كأساً، فسقَتْهُ كأساً، قال: زيدوني، فلم يرِمْ ــ أي فلم يزل على حاله ووصفه هذا، ويطلب المزيد ــ حتَّى وقع عليها، وقتلَ النفسَ!

---

(57) السلسلة الصحيحة: **1854**.

فاجتنِبوا الخمرَ؛ فإنها واللهِ لا يجتمعُ الإيمانُ وإدمانُ الخمرِ، إلَّا لَيوشكُ أنْ يُخرِجَ أحدُهما صاحبَهُ [58].

ومنها: الخِلّة والأخِلَّاء: فيتخذ المرء لنفسه خليلاً سيئاً فاسداً، فيتخلل حبه في قلبه، ويتعلّق به، ويوالي ويُعادي، ويحب ويبغض، ويعطي ويمنع فيه، وله .. ويتابعه في الحق والباطل سواء .. وفيما هو عليه من عادات وسلوكيات خاطئة .. فيضله عن الحق، وعن صراط الله المستقيم،، ويكون سبباً في هلاكه وضياعه .. فإذا ما جاء يوم الحق، وكُشف عنه الغطاء، وأصبح بصره حديداً، حيتئذٍ يقول: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي ﴾ الفرقان: 28-29. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ . فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الشعراء: 99-101. وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: 67.

وفي الحديث: "المرءُ على دينِ خليلِهِ فلينظرْ أحدُكُم مَن يخالطُ" [59]. لأن الخِلة تبدأ بسبب الخلطة، وأنت ومن تخالط؛ فإن خالطت الطالحين المفسدين، اتخذتهم أخلاء،

---

[58] صحيح سنن النسائي: 5682. في كثير من البلدان أصبحت المخدرات غير ممنوعة، تُباع بطريقة قانونية، وبنسب محدودة .. وهي في توسع وانتشار ملحوظين .. فإذا أدمن عليها الشباب، طلبوا المزيد منها بطرق غير قانونية، ولا مردّ لهم .. فعقول الناس، وبخاصة الشباب منهم، يتعمدون استهدافها، وعطبها؛ ليصرفوهم عن طريق الحق والرشد والهداية، وليشغلوهم بالمخدرات عن واقعهم الأليم، وواقع وضلال وفساد السّاسة، وأنظمة حكمهم!

وكنت واحداً منهم، وإن جالست وخالطت الصالحين، اتخذتهم أخلاء، وكنت واحداً منهم، فأول الخلة الخلطة والمجالسة.

وفي رواية: "المرءُ على دينِ خليلِهِ، فلينظُر أحدُكم من يخالِلُ". "الرجلُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يُخالِلُ"[60]. والخلة أشد وأعلى أنواع ودرجات المحبة.

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والسَّوْءِ، كَحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ: إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تَبْتاعَ منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً" متفق عليه. وفي رواية: "مثلُ جليسِ الصّالحِ؛ كمثل صاحبِ المسكِ، إن لم يُصِبْك منه شيءٌ، أصابك من ريحِه، ومثلُ جليسِ السوءِ كمثلِ صاحبِ الكِيرِ، إن لم يُصِبْك من سَوادِه، أصابك من دُخانِه".

وقال صلى الله عليه وسلم: "المَرْءُ مع مَن أحَبَّ" البخاري.

وفي رواية عند الترمذي: "المرءُ مع من أحبَّ يومَ القيامةِ"[61]. فأنت ومن تحب؛ فإن كنت تحب الطواغيت، والمجرمين الظالمين، والفاسقين والفاسقات، فأنت

---

(59) أخرجه أحمد في المسند، وصححه أحمد شاكر في التخريج.

(60) صحيح سنن أبي داود: **4833**.

(61) صحيح سنن الترمذي: **3535**

معهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الأنبياء، والصالحين فأنت معهم يوم القيامة، فالمرء يُحشر مع من أحب.

وعلى قدر ما يذم أن تتخذ من الطالحين والفاسقين والظالمين أخلاء وأولياء، على قدر ما يحمد منك أن تتخذ من الصالحين والمؤمنين أولياء وأخلاء؛ تواليهم وتحبهم في الله، ولله، كما في الحديث، قال النبيُّ ﷺ: "ما تحابَّا الرجلان إلا كانَ أفضلُهما أشدَّهُما حُبَّاً لصاحبه" [62].

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من رجلين تحابَّا في الله بظهرِ الغيبِ؛ إلا كانَ أحبُّهما إلى الله أشدَّهما حُبَّاً لصاحِبه" [63].

وقال صلى الله عليه وسلم: "المتحابُّون في الله في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه، يَغبِطُهم بمكانهم النبيُّون والشُّهداءُ". وفي الحديث القدسي: "حَقَّت محبَّتي على المتحابِّين فيَّ، وحَقَّت محبَّتي على المتناصِحين فيَّ، وحَقَّت محبتي على المُتَباذِلين فيَّ، هم على منابِرَ من نورٍ، يغبطُهُم النَّبيُّون والشُّهداء والصِّديقُون" [64]. وقال صلى الله عليه وسلم: "قالَ

---

[62] صحيح الأدب المفرد: **423**.

[63] أخرجه الطبراني، السلسلة الصحيحة: **3273**.

[64] رواه ابن حبان وغيره، صحيح الترغيب والترهيب: **3019**. وقوله: "حقت"؛ أي وجبت.

الله ﷻ: المُتحابُّون في جَلالي لَهُم منابِرُ من نورٍ، يَغبطُهُم النبيُّون والشُّهداءُ". وقال صلى الله عليه وسلم: "إن لله جُلساءَ يومَ القيامة عن يمين العرشِ، على منابرَ من نورٍ، وجوهُهم من نورٍ، ليسوا بأنبياءَ ولا شُهداء ولا صدِّيقين"، قيل: يا رسولَ الله من هم؟ قال: "هم المُتحابُّون بجلالِ الله تبارك وتعالى"[65]. وقال صلى الله عليه وسلم: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ــ منهم ــ: وَرَجُلَانِ تَحَابَّا في اللهِ" البخاري.

هناك مفردات وعناصر عديدة، منها القديم ومنها المُحدَث، تدخل في معنى، وتحت طائلة "شرك المحبة"، وشرك الموالاة، لو تتبعناها، لطال بنا المقام .. والشيطان لن يتوقف عن إحداث ومسميات جديدة لها علاقة بشرك المحبة، وكلما انكشف وتعرى شركاً أحدث شركاً جديداً، أكثر غموضاً وغرابة مما قبله، ليروج على الناس .. لكن أزعم أن القارئ قد أصبح يملك الميزان الصحيح، الذي به ومن خلاله يستطيع أن يتعرّف على "شرك المحبة"، وعلى صفته، لو جاء تحت عناوين، ومسميات جديدة، وبصور مختلفة .. فالعبرة ليست في المسميات، والأشياء، كما هي في المضمون والمعاني التي تُصرف لهذه الأشياء والمسميات.

---

[65] رواه الطبراني، صحيح الترغيب والترهيب: **9022**.

## مسائل متفرقة تتعلق بشرك المحبّة:

المسألة الأولى: قد يبغض مؤمن مؤمناً لخصومة، أو لصفة منفرة في المؤمن، أو لغرضٍ من أغراض الدنيا، وقد يكون محقاً، وقد يكون مبطلاً وآثماً، لكن أثمه هذا لا يخرجه من الملة، ولا يدخله في "شرك المحبة"، ويبقى له حكم الإسلام .. أمّا إن كره أو أبغض جميع المؤمنين والمسلمين، وأطلق الاطلاقات التي تنم عن بغضه لجميع المسلمين، ومن دون استثناء لأحد منهم، فهذا يكفر ويخرج من الملة، ويدخل في معنى، وتحت طائلة "شرك المحبة"؛ إذ يستحيل أن يوجد من يكره ويبغض جميع المسلمين ومن دون استثناء، لسبب من أسباب الدنيا، أو لغرضٍ شخصي، ولم يتبقَّ إلا أنه يكرهم ويبغضهم لدينهم وإسلامهم، ومن كان كذلك لا شك في كفره وشركه، وخروجه من دائرة الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ التوبة: 71. أمّا من يبرأ من موالاة مطلق المؤمنين والمؤمنات، فهذا ليس من المؤمنين والمؤمنات .. وهو من الفريق الآخر: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة: 67.

المسألة الثانية: الموالاة كالشرك؛ منها الموالاة الكبرى التي تخرج صاحبها من الملة، ومنها الموالاة الصغرى؛ موالاة دون موالاة؛ لا تخرج صاحبها من الملة.

الدليل على الموالاة الكبرى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم إِنَّ اللهَّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة: 51.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للهِّ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ النساء: 144. أي برهاناً على نفاقكم وكفركم!

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ المائدة: 81.

وقوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهَّ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ آل عمران: 28. قال الشوكاني في التفسير: وقول: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهَّ فِي شَيْءٍ﴾ ؛ أي من ولايته في شيء من الأشياء، بل هو منسلخ عنه بكل حال ا- هـ. وغيرها كثير من الآيات التي تدل على هذا القسم من الموالاة؛ الموالاة الكبرى.

الدليل على الموالاة الصغرى: مثال الموالاة الصغرى؛ كإظهار نوع غضب وتعصب وميل بغير حق للقطر، وللقبيلة، أو العائلة، أو الحزب، أو لصديق، أو شخص، أو لقرابة، ونحو ذلك .. وهذا وإن كان يدخل في معنى الموالاة الباطلة، إلا أنه لا يخرج صاحبه من الملة، ولا يدخل في معنى الموالاة الكبرى، مثاله كما في الحديث، في الصحيحين من قصة الإفك، قال النبي ﷺ: "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ــ يريد رأس النفاق عبد الله بن أُبي ــ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً"؟. فقام سعد بن معاذ، فقال: أنا أعذرك منه، إن كان من إخواننا من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فأخذت سعد بن عبادة غيرة! قالت عائشة رضي الله عنها: كان قبل ذلك أمرءاً صالحاً، ولكن أخذته حمية، لأن ابن أُبي كان كبير قومه. فقال سعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله!! فقام أسيد بن حضير، فقال ــ لسعد بن عبادة ــ: كذبت لعمر الله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين! وثار الحيان حتى نزل رسول الله ﷺ فجعل يسكّنهم.

فرغم أن هذه الحمية التي أخذت الصحابي سعد بن عبادة، ودخوله في هذا النوع من الجدال عن المنافقين إلا أنه لم يكفر ولم يكن موالٍ لهم الموالاة الكبرى التي تخرجه من الملة، ومثل هذا يحصل كثير منه بين الناس، ولو كان كفراً، لما بقي أحد في دائرة الإسلام.

قال ابن تيميه في الفتاوى 7/ 523: وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم فتكون ذنباً بنقص به، إيمانه، ولا يكون به كفراً، كما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك، فقال: لسعد بن معاذ: كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين، هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافقاً! وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين ا- هـ.

وكما في الحديث، عن جابر بن عبد الله، قال: كسَع رجُلٌ مِن المُهاجِرينَ رجُلاً مِن الأنصارِ ــ أي ضربه برجله على قفاه ــ فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ! وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمهاجِرينَ! فكل رجل يستنصر ويستصرخ قومه وجماعته، على الطرف المقابل، فسمِع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاك فقال: "ما بالُ دعوى الجاهليَّةِ"؟! فقالوا: يا رسولَ اللهِ رجُلٌ مِن المُهاجرينَ كسَع رجُلًا مِن الأنصارِ، فقال: "دَعُوها فإنَّها

مُنْتِنةٌ" [66] . فمثل هذا النوع من التناصر والموالاة، هو من دعوى الجاهلية، وهي مُنْتِنةٌ، لكن لا ترقى إلى درجة الموالاة الكبرى، التي تخرج صاحبها من دائرة الإسلام.

المسألة الثالثة: فإن قيل هل توجد صفات محددة، تعيننا أكثر على التمييز بين الموالاة الكبرى، والموالاة الصغرى؟

أقول: الموالاة الكبرى التي ترقى إلى درجة الشرك، وتخرج صاحبها من الملة، تتصف بالصفات التالية، أو بواحدة منها:

1- أن يوالي المخلوق ــ أيّاً كان هذا المخلوق، وكانت صورته وهيئته ــ لذاته؛ لأنه هو هو، فيُعقد فيه الولاء، والبراء، والحب والبغض من دون الله .. فهذه موالاة كبرى، تخرج صاحبها من الملة.

2- أن يوالي الكافر، ويُحَب، ويُنصَر لدينه، وكفره، وظلمه، وباطله .. فهذه موالاة كبرى، تخرج صاحبها من الملة.

3- موالاة الكافرين، ونصرتهم على الإسلام والمسلمين، ولو كان ذلك من أجل عرَض من الدنيا .. فهذه أيضاً موالاة كبرى، تخرج صاحبها من الملة.

---

[66] أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه شعيب الأرناؤوط في التخريج.

وما سوى ذلك من صور الموالاة الخاطئة مهما تعددت، وتنوعت أشكالها، وصورها .. فهي لا ترقى إلى درجة الموالاة الكبرى، فهي موالاة صغرى؛ موالاة دون موالاة، لا تخرج صاحبها من دائرة ومسمى الإسلام.

المسألة الرابعة: هل إنصاف الكافر المظلوم من المسلم الظالم، من الموالاة الكبرى أم الصغرى ..؟

الجواب: إنصاف الكافر المشرك المظلوم من المسلم الظالم، لا يدخل في الموالاة الكبرى، ولا الصغرى .. بل هو واجب ديني إيماني أوجبه الله تعالى، ورسوله على المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة: 8. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأنعام: 152. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ النحل: 90. مع الولي والعدو، ومع المسلم والكافر سواء. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ المسلمين وغير المسلمين ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ النساء:58.

وفي الحديث القدسي: "يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فلا تَظَالَمُوا" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا مَن ظلَمَ مُعَاهَداً، أو انْتَقَصَهُ حَقَّهُ، أو كَلَّفَهُ فَوقَ طاقَتِه، أو أخَذَ مِنهُ شيئًا بِغيرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنهُ، فأنَا حَجِيجُهُ يَومَ القِيامةِ" [67]. والمراد بالمعاهَد غير المسلم؛ الذي يدخل في عهد وأمان المسلمين، في بلادهم، أو الذي يدخل من المسلمين في عهدهم وأمانهم في بلادهم.

المسألة الخامسة: قد يوجد في الشخص الواحد موجبات الموالاة والمعاداة والمجافاة معاً، فلا يُوالى مطلقاً، ولا يُعادَى ويُجافى مُطلقاً، وإنما بقَدْر؛ وذلك عندما تجتمع فيه طاعة ومعصية، سنة وبدعة، خير وشر، إيمان وكفر أصغر، فيوالى على قدر ما فيه من طاعة وخير، ويُجافى على قدر ما فيه من معصية وشر .. مع الانتباه والحذر أن لا تكون المجافاة لهوى أو لحظوظ في النفس، وكذلك الموالاة.

قال ابن تيمية في الفتاوى **28/ 209**: "إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة، استحقَّ من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشرّ، فيجتمع في الشخص الواحد

---

[67] صحيح الجامع: **2655**.

موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته .. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة" ا- هـ.

المسألة السادسة: يوجد فرق بين الإحسان لغير المسلمين، وبرهم، ومعاملتهم معاملة حسنة، وبعدل، وعدم التعرض لهم بأذى، وبما بسيئ، والإنفاق والتصدق والإهداء على ذوي الحاجة والحقوق منهم، وعلى المؤلفة قلوبهم ممن يرجى إيمانهم وإسلامهم .. كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: "فقد أَعْطَى رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ حنين صَفْوَانَ بنَ أُمَيَّةَ مِئَةً مِنَ النَّعَمِ، ثُمَّ مِئَةً، ثُمَّ مِئَةً! فقال صفوان: وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أَعْطَانِي، وإنَّه لأَبْغَضُ النَّاسِ إلَيَّ ــ وهذا كفر، وهذا يعني أنه كان يعطيه وهو لا يزال على الكفر والشرك ــ فَما بَرِحَ يُعْطِينِي ــ أي يزيده في العطاء، ويتألّف قلبه بالعطاء ــ حتَّى إنَّه لأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ". يوجد فرق بين هذا المعنى، وهو حق كما تقدم، قد نصت عليه نصوص عديدة من الكتاب والسنة .. وبين المحبة، والموالاة، والود، والركون .. وهذا معنى ممنوع ومقطوع، لا يجوز صرفه إلا لمؤمنٍ!

والذي حملني على الإشارة إلى هذه الجزئية الواضحة من ديننا أن من دعاة ومشايخ العصر من يتعمد الخلط بين المعنيين الآنفي الذكر، وكأنهما سواء؛ فيستدل بأدلة جواز الإحسان، والبر، والعدل، والصدقة، وحسن المعاملة مع غير المسلمين، ممن هم في ذِمَّة المسلمين، وجوارهم، وعهدهم، وأمانهم، على جواز موالاتهم، ومحبتهم، والركون إليهم .. فيلبّسون على الناس أمر دينهم، فتعين التنبيه لذلك، والتحذير منه، ومن هؤلاء المدلّسين، والله المستعان!

**3- شرك التَّحاكم والتَّشريع:** هذا النوع من الشرك متعلق بطرفين: الحاكم المشرّع، ومن يتحاكم إلى هذا الحاكم المشرّع.

**الحاكم المشرّع:** اعلم ابتداءً أن الذي له الحكم والتشريع، والتحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح، وأن يحكم على الأشياء بما شاء، وله حق على الناس أن يحتكموا إلى شرعه وحكمه، هو الله تعالى وحده .. وأيما مخلوق ــ أيّاً كان، وكانت صفته وهيئته ــ يدَّعي لنفسه هذا الحق؛ حق التشريع، والتحليل والتحريم، من دون الله تعالى، سواء احتكم إليه الناس أم لم يحتكموا، وسواء حسَّنوا شرعَه أم قبحوه، فهو مشرك، وطاغوت، وجعل من نفسه ندّاً لله تعالى في خاصية الحكم والتشريع.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ الكهف: 26. وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِّ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يوسف: 40. وقال تعالى﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِّ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الأنعام: 57. وقال تعالى: ﴿وَاللهُّ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ غافر: 20. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُّ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُّ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِّ تَفْتَرُونَ﴾ يونس: 59. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ النحل: 116. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء: 29. وكل من يقول لي الحكم، ولي حق التَّشريع، وحق التحليل والتحريم، من دون ــ أو مع ــ الله، فهو يقول بكل وقاحة وصراحة: ﴿إِنِّي إِلَهٌ﴾ !

وكل من أقرَّ لهذا الطاغوت بهذا الحق، ورضي به حاكماً ومشرّعاً من دون الله، سواء احتكم إلى شرعه أم لم يحتكم فهو مشرك بالله، قد اتخذه إلهاً ورباً من دون الله، وأقرَّ له بالربوبية والألوهيّة، فإن أضاف إلى ذلك الإقرار الاحتكام إليه وإلى شرعه، يكون قد أضاف إلى كفره وشركه كفراً وشركاً آخر، ليصبح من ذوي الشرك المركّب، والكفر المغلّظ؛ يعلو بعضه بعضاً!

وكذلك من يحتكم إليه وإلى شرعه طواعية، رغم وجود المحاكم الشرعية التي تحكم بشرع الله تعالى المنزَّل، وقادرة على إنصافه، واسترداد الحقوق .. فيعدل طواعية عن شرع الله المنزّل إلى شرع الطاغوت المُفترَى .. طمعاً في تحصيل عرض من أعراض الدنيا .. فهو كافر مشرك، وإن لم يقر للطاغوت بحق التشريع والتحليل والتحريم من دون الله.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ التوبة: 31. وذلك لما أقروا لهم بحق التشريع، والتحليل والتحريم من دون الله، وتابعوهم على ذلك. ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: 64. وقد تقدّم الحديث عن هذه الآية الكريمة، وعن المراد منها.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ النساء: 60. وهذه آية تُحمَل على كل من يعدِل عن شرع الله المنزل، يريد أن يتحاكم إلى الطاغوت .. وأن دعواه الإيمان ما هو إلا زعم وادعاء كاذب، يكذبه فعله وواقعه.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهّ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ الأنعام: 150. يعدلون عن عبادة الله تعالى، وعن حكمه، وشرعه، إلى عبادة غيره، وإلى حكمه وشرعه .. وهؤلاء هم المشركون حقّاً.

وقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء: 65.

قال ابن القيم في كتابه التبيان في أقسام القرآن: "أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً النفي قبله، عدم إيمان الخلق حتى يحكّموا رسولَه في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع، وأحكام الشرع، وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج؛ وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة والاعتراض" ا- هـ.

مسألة: يُستثنى مما تقدم ذكره أعلاه التَّشريع ذي الطابع الإداري، والتنظيمي، كتنظيم شؤون الجيش والعسكر، وشؤون الدواوين، وسجل النفوس، وحركة المرور

وقوانينه، والعمل البريدي، والوظائف الحكومية، وأوقات عملها، وانتهاء دوامها، وشؤون التعليم وأنظمته، وتطوير الأنظمة الزراعية، والصناعية، والتجارية، وطرق الشحن والتصدير والاستيراد، وبناء المصانع، ومد الجسور، وتعبيد الطرق، ونحوها من المصالح المرسلة .. فالشارع الحكيم ترك الحرية للإنسان في أن يختار ما يناسبه من تلك الأنظمة، وما يناسب زمانه ومكانه، وتتحقق فيه المصلحة .. فهذا النوع من التشريعات الإدارية والتنظيمية لا حرج في تشريعها وسنها ابتداء، أو اقتباسها من الآخرين، بشرطين:

أولهما: أن لا تتعارض القوانين الإدارية التنظيمية مع أي قانون أو مبدأ من قوانين ومبادئ الشرع المنزّل، فإن عارضت، ردَّت، ونُظر في غيرها.

ثانيهما: أن لا تتعارض مع روح ومقاصد الشريعة، فإن عارضت، رُدّت، ونُظر في غيرها. مثال على ذلك، أن يسن قانون يلزم بالعمل والدوام في وقت صلاة الجمعة .. فهذا القانون وإن كان ذا طابع إداري تنظيمي إلا أنه يتعارض مع توجيه هام من توجيهات الشريعة، لذا فيرد، ويُستبدل بقانون آخر لا يتعارض مع تعاليم الشريعة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجمعة: 9.

ونحوها أن تُسَن قوانين إدارية تنظيميّة مرهقة لا يُراعى فيها مصلحة وأمن وسلامة وحقوق الأسرة بجميع مكوناتها، أو لا يراعى فيها حرية وكرامة الإنسان، أو لا يُراعى فيها نظافة وسلامة البيئة .. فهذه القوانين وإن كانت إدارية تنظيمية، إلى أنها تفضي إلى ظلم، وإلى خطأ، وبالتالي لا يجوز إقرارها ولا العمل بها، فالشريعة الإسلامية تبقى هي المشرفة والمهيمنة والموجهة، والمظلة لجميع حركة وأنشطة الإنسان الخاصة منها، والعامة.

مسألة ثانية: التَّحاكم إلى الأكثريَّة: التحاكم إلى الأكثرية في الترجيح والاختيار بين الفاضل وبين المفضول، وفي الاختيارات الفقهية المختلف فيها، وفي اعتماد وترجيح القوانين ذات العلاقة بالطابع الإداري والتنظيمي للبلاد والعباد التي تقدم الحديث عنها أعلاه .. هذا النوع من الاحتكام إلى رأي الغالبية أو الأكثرية لا حرج فيه، له مستند شرعي كما بيناه في أكثر من موضع، من كتبنا وأبحاثنا .. وليس هو موضوعنا هنا، إنما موضوعنا التحاكم إلى الأكثرية كما تقرره الأنظمة والانتخابات الديمقراطية المعاصرة، وهو واقع يتعامل ويتعايش معه كثير من الناس.

قبل أن نتحدث عن هذه الأكثرية، وعن حكم الشرع فيها، نشير ابتداء إلى أن الأكثرية التي تمكّن حزباً من الأحزاب المتنافسة من أن يحكم البلاد والعباد، وفق رؤيته،

وأفكاره، وأيديلوجيته، كما تنص على ذلك الديمقراطيات المعاصرة، هي في حقيقتها أقلية وليست أكثرية؛ فهي أكثرية بالنسبة لعدد المصوتين، وليس بالنسبة لعدد من يحق لهم التصويت من الناس .. وقد يكون الذين لم يصوتوا، ولم يشاركوا في التصويت، أكثر من مجموع المصوتين، فإذا أضيف إليهم عدد الذين خسروا الانتخابات من الأحزاب المشاركة، ولو ناقص واحد .. فتصبح هذه الأكثرية المزعومة أقلية الأقلية .. وبالتالي عند التحقيق فإن الأكثرية ليست هي التي تحكم كما تزعم الديمقراطية وأربابها، وإنما هي أقليّة الأقلية .. وهذه مشكلة أخلاقية وسياسية كبيرة تواجه الديمقراطية المعاصرة، وتظهر عورها، ونقصها، وظلمها، وعلى دعاتها أن يجدوا لها حلاً، إن كانوا قادرين على ذلك، وأنَّى!

فإذا علم ذلك، نقول: هذه الأكثرية المزعومة إن كان لها الحق في أن تختار وتُفاضل بين الكافر وبين المؤمن .. بين الأشد كفراً وفجوراً وظلماً وفساداً، وبين الأشد والأكثر صلاحاً، وإصلاحاً .. وبين الكفر وبين الإيمان .. وبين الحلال وبين الحرام .. وبين الحق وبين الباطل .. بين الفسوق والفجور، وبين الطهر والعِفَّة .. ثم يكون اختيارها مُلزماً، وواجب الامتثال من قبل الجميع، بما في ذلك الواقفين في صف المعارضة .. أيَّاً كان اختيارها؛ حتى لو اختارت الكافر، والكفر، والحرام، والباطل، والفسوق والفجور ..

فالأكثرية حينئذٍ بهذا الوصف طاغوت كبير .. والتحاكم إليها، والرضى بحكمها، شرك أكبر.

**4- شركُ الدّعاء:** أخص ما يدخل في معنى العبادة الدعاء، بل الدعاء هو العبادة، كما في الحديث: "الدُّعاءُ هُو العبادةُ"؛ أي هو من أجلّ وأخص ما يدخل في معنى العبادة، بل هو العبادة كلها؛ لتضمنه التمجيد، والتعظيم، والتنزيه للرب سبحانه وتعالى، والإقرار بالربوبية والألوهية، والإقرار بالذنب وانتفاء الحول والقوة من قبل العبد، ثمَّ قرأ، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ؛ أي عن دعائي، ويدعون غيري، وأنا ربهم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر: 60.[68].

وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: 5. أي إيَّاك وحدك نخصك بالعبادة، وإيَّاك وحدك نخصك بالاستعانة، فكما لا نعبد غيرك، فلا نستعين ولا نسأل، ولا ندعو غيرك، والعبادة تشمل الاستعانة، لكن لأهمية الاستعانة في قضية التوحيد، وإفراد الله تعالى في العبادة، خُصَّت بالذِّكر.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ؛ على الحقيقة؛ من حيث خلق وإيجاد الطعام والشراب، ومن حيث إيصاله إلي من خلال وسائل عدة، ومن حيث تمكين

---

[68] صحيح سنن الترمذي: 3247.

الله لي من تناوله، وإساغته، واستقراره في المعدة، وهضمه، ومن حيث إيجاد سبيلاً لخروجه؛ إذ لو انحبست فضلات الطعام والشراب في الجسم، لهلك الإنسان، ولما تنعم من طعام ولا شراب، ولَمَا ازداد من تناول الطعام والشراب إلا أذاً، كل ذلك يتم من غير حول ولا قوة من الإنسان، لذا جاء في الحديث، عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "من أكل طعاماً ثم قال: الحمدُ للهِ الذي أطعمَني هذا الطعامَ ورزقَنِيهِ من غيرِ حولٍ مني ولا قوة، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِه" (69). وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أكَلَ أو شربَ قالَ: "الحمدُ للهِ الَّذي أطعمَ، وسَقَى، وسوَّغَهُ، وجَعلَ لَه مخرجاً" (70). فيرد الحول والقوة، والفعلَ كله لله تعالى.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء: **79-80**. بسبب كالدواء؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق الدواء، وهو الذي أودع في الدواء خاصيّة الإشفاء، إن شاء أمضاه، وإن شاء منعه، وهو الذي هدانا إليه، وأحياناً يشفيني من دون سبب إذا شاء سبحانه، فالله تعالى هو خالق الداء والدواء، وهو الشافي، وهو على كل شيئ قدير .. فإن شفاني بسبب، أو من دون سبب فكلا الحالتين من الله، وبإذنه ومشيئته .. ولما جاء رجل إلى

---

(69) رواه أبو داود وغيره، صحيح سنن أبي داود: **4023**.

(70) صحيح سنن أبي داود: **3851**.

النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنّي طبيب. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنتَ رفيقٌ، واللهُ الطبيب". وفي رواية عند أبي داود: "الله الطبيب، بل أنت رجلٌ رفيقٌ" [71]. أي أنت رفيق ترفق بالمريض بتقديم الدواء له، أما الطبيب الشافي على الحقيقة هو الله تعالى وحده.

وفي الحديث، عن ابن عباس، قال: كنتُ خلفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا، قال: "يا غلامُ، إنِّي مُعلِّمُكَ كلماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَكَ، وإذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِنْ باللهِ، واعلَمْ أنَّ الأمةَ لو اجتَمعوا على أنْ ينفَعوكَ، لم ينفَعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتَبه اللهُ لكَ، ولو اجتَمعوا على أنْ يضرُّوكَ، لم يضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتَبه اللهُ عليكَ، رُفِعتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ" [72].

وعليه أيها عبد يتوجه للمخلوق ــ أيّاً كان هذا المخلوق؛ سواء كان نبياً، أم مَلَكاً، أم صحابياً، أم وليّاً، أم قبراً، أم ميتاً، أم صنماً، أم شيخاً، أو غير ذلك ــ بالدعاء، والاستغاثة، والسؤال، وطلب المدد، وقضاء الحاجات، وجلب المنافع، وكشف الضر، والخطوب، والبلايا .. فهو مشرك، وهو داخل في عبادة هذا المخلوق من دون الله تعالى.

---

[71] صحيح سنن أبي داود: **4207**.

[72] صحيح سنن الترمذي: **2516**.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ﴾ الأنعام: 17.

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يونس: 107. وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ الإسراء: 56. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ الرعد: 14. ﴿وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ الرعد: 14.

ومن عادة المشرك، من قبل، واليوم، وغداً، إذا مسه الضر، وداهمه الخطر، أن ينسى من كان يعبد ويدعو غير الله تعالى، لإدراكه أن من يعبدهم ويدعوهم من دون الله لا يملكون له نفعاً ولا ضراً، ويتذكر الله سبحانه القادر والقوي والغني، فإذا كشف الله عنه الضر، وعاد إلى حالة الأمن والرخاء، عاد إلى الشرك، ودعاء غير الله تعالى من جديد!

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت: 65. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم

مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الروم: 33. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يونس: 12. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ الإسراء: 67. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾ فصلت: 51.

مسألة: ليس بين الله تعالى وبين عباده وسطاء، ولا شفعاء: من خلالهم تُقبل وتُرفع الأعمال، وتُطلب الحاجات، وتُكشَف الهموم والكُربات .. وبالتالي لا بد للناس من أن يقصدوهم، ويتوجهوا إليهم بالدعاء والطلب، والآخرون يقومون برفع طلباتهم وحاجياتهم إلى الله .. لا؛ لا يوجد في الإسلام دين الله تعالى شيء من ذلك .. المشركون هم الذين يعتقدون ذلك، ويفعلون ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الزمر: 3. وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ

يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يونس: **18**. [73].

ولما سأل جماعة النبي صلى الله عليه وسلم: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم جواب عمّا سألوا عنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: **186**. وهو سبحانه أقرب إلينا مما نتصور، فكيف نجعل بيننا وبينه وسطاء نتوسطهم إليه وهو أقرب إلينا منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق: **16**. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد: **4**. ولما أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يذهبا إلى فرعون، وأن يرياه الآيات، ويدعياه إلى الإسلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾ طه: **45**. فأجابهما مباشرة: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ طه: **46**. ما في واسطة .. ولا حُجَّاب .. ولا حواجز .. بينك وبين الله يا

---

[73] الشفاعة الشرعية المنصوص عليها تكون حصراً في اليوم الآخر فقط، وتكون لمن يأذن الله له أن يشفع، وبعد أن يحدد له من يُسمح له أن يشفع لهم، فالشفاعة يومئذٍ لله تعالى وحده: [قُل لِّلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً] الزمر: **44**. أمّا في الحياة الدنيا لا يوجد شيء من هذه الشفاعات.

عبد الله .. كما لا يوجد وقت محدّد يُسمح لك فيه بأن ترفع دعاءك وشكواك، وسؤالك إلى الله .. بل بابه مفتوح لك على مدار الوقت .. ليلاً ونهاراً .. وفي أي ساعة تشاء .. لا تحتاج إلى أذنٍ من أحدٍ لكي تدخل إليه .. وهو سبحانه يحب منك أن تسأله حاجتك ومسألتك.

تأمّلوا معي هذا الحديث العظيم، كيف أن الله تعالى ــ وهو المِلك الغني مالِك الملك، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العُليا ــ يتودد لعباده؛ يسألهم عمن يريد شيئاً ليعطيه، وعمّن عنده حاجة أو مسألة ليقضيها له .. وذلك في كل ليلة، كما في الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يقولُ: مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له؟ مَن يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ؟ مَن يَستَغْفِرُني فأغْفِرَ له" متفق عليه. وفي رواية في صحيح ابن حبان: "لا أسألُ عَن عبادي غيري". فهو سبحانه لم يسمح لأحدٍ غيره من الملائكة المقربين أن يسألوا الناس عن حوائجهم، ليقضيها لهم ربهم .. بل هو بذاته المقدسة يتولى أمر هذا السؤال الإلهي العظيم؛ سؤال عباده عن مسائلهم، وحوائجهم ليقضيها لهم، وذلك في كل ليلة، في الثلث الآخر منها .. حتى في هذا الجانب ــ الذي لا يتعارض مع عقيدة التوحيد في شيء ــ لا يرضى الله تعالى أن يكون بينه وبين عباده وسطاء!

مسألة ثانيّة: حتى في الجوانب الدنيوية المباحة، التي يحتاج فيها الناس إلى بعضهم البعض، فقد رغّب الإسلام المسلمين بأن لا يسألوا الناس شيئاً .. كما في الحديث عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن يَكْفُلُ لي أن لا يسألَ النَّاسَ شيئًا وأتَكَفَّلُ لَه بالجنَّةِ". فقالَ ثَوبانُ: أنا؛ فَكانَ لا يسألُ أحداً شيئاً" [74]. وفي رواية عند النسائي: " من يضمَنُ لي واحدةً ولَهُ الجنَّةُ أن لا يسألَ النَّاسَ شيئاً" [75].

وعن عوفُ بنُ مالِكٍ، قالَ: كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سَبعةً أو ثَمانيةً أو تِسعةً فقالَ: "ألا تُبايعونَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؟". وَكُنَّا حَديثَ عَهْدٍ ببيعةٍ قُلنا قد بايَعناكَ حتَّى قالَها ثلاثًا فبَسطْنا أيديَنا فبايَعناهُ، فقالَ قائلٌ: يا رسولَ اللهِ إنَّا قد بايَعْناكَ فعلامَ نُبايعُكَ؟ قال: "أن تعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكوا بهِ شيئاً، وتُصلُّوا الصَّلواتِ الخَمسَ، وتَسمعوا وتُطيعوا"، وأسرَّ كلِمةً خَفيَّةً، قالَ: "ولا تسألوا النَّاسَ شيئاً"، قالَ: فلَقدْ كانَ بعضُ أولئِكَ النَّفَرِ يسقُطُ سوطُهُ – أي وهو على فرسه – فما يسألُ أحدًا أن يُناوِلَهُ إيَّاهُ [76].

---

[74] صحيح سنن أبي داود: **1643**.

[75] صحيح سنن النسائي: **2589**.

[76] صحيح سنن أبي داود: **1642**.

فإن قيل: علامَ رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم هذا الترغيب الكبير، في أن لا نسأل الناس شيئاً، والناس بحاجة إلى بعضهم البعض ..؟!

أقول: هذا الترغيب بأن لا نسأل الناس شيئاً، جاء لمعانٍ عدة؛ منها: أن يتطهر القلب من أدنى معاني التعلق بالخلق، وأن لا يتعلّق إلا بخالقه، وهذا من أخص ما يدخل في معنى التوكل على الله، كما في الحديث: "عليكَ بِالإِياسِ مِمَّا في أَيْدِي الناسِ، وإِيَّاكَ و ما يُعْتَذَرُ مِنْهُ" (77).

ومنها: أن سؤال المخلوق يتضمن من طرف خفي شكوى الخالق إلى المخلوق .. شكوى المعبود إلى عبده .. شكوى الغني إلى الفقير .. فأنت عندما ترمي بحاجتك وفقرك إلى إنسان آخر، وتسأله أن يعطيك، ويرفع عنك الفقر، كأنك تقول له: الله أفقرني .. فاعطني واغنني من مالك .. وهذا معنى عظيم تقشعر منه الأبدان لو تأملناه وتدبرناه!

ومنها: أن الله تعالى غيور، لا أحد أغير منه، كما في الحديث: " لا أحدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ " متفق عليه. ومن غيرته على عبده أن يراه ينصرف عنه، إلى غيره، أن يتعلق قلب عبده بغيره؛ فيترك دعاءه ومسألته، وهو ربه وخالقه، ومالكه، والقادر على أن يجيبه ويعطيه، ليدعو ويسأل غيره؛ من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ..!

---

(77) صحيح الترغيب والترهيب: **832**.

ويأبى الله ــ يا عبد الله ــ إلا أن يرزقك، ويجعل لك مخرجاً وفرجاً من كل كرب وضيق، من حيث لا تحتسب، ولا تظن، وبسبب لم يتعلق قلبك به، بل لربما لم تكن تعرفه وتفكر به؛ لتعلم أن الرازق والفارج هو الله تعالى وحده.

قال صلى الله عليه وسلم: "مَن لم يَدعُ اللهَّ سبحانَهُ، غَضبَ علَيهِ"[78]. وفي رواية: "مَن لم يسألِ اللهَ يغضبْ علَيهِ"[79].

**5- شركُ السِّحر، والسَّاحر**: وعلة ذلك أن السحر عمل مؤلف ومركب يُعظم فيه غير الله تعالى، تُنسب إليه القدرة على التأثير في حقيقة الأشياء، وصورتها، والتصرف في المقادير والكائنات ضراً ونفعاً .. وعادةً لكي تستجيب الشياطين لما يريده منهم الساحر، لا بد من أن يستجيب لهم أولاً فيما يطلبونه منه، من كفر وشرك، واستخفاف، واستهانة بكتاب الله تعالى.

فالساحر من وجه يزعم القدرة على التأثير في الأشياء لذاته، فيزعم القدرة على إنزال الضر فيمن يشاء، ورفعه عمّن يشاء .. وهذا من أخص خصائص الله تعالى وحده؛ فالضار النافع الذي لا راد لضره ولا مانع لنفعه أحد هو الله تعالى وحده .. وما سواه تعالى لا يقدر على أن ينزل ضراً أو يحقق نفعاً لأحد إلا بإذن الله تعالى ومشيئته.

---

[78] صحيح سنن ابن ماجه: **3100**.

[79] صحيح سنن الترمذي: **3373**.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ الإسراء: 56. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأنعام: 17. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يونس: 107. وهذا معنى قد مر معنا عند الحديث عن شرك الدعاء.

إضافة إلى ما تقدم فإن الساحر معبود من جهة كثير من جهلة الناس الذين يعتقدون فيه القدرة على التأثير بالأشياء نفعاً وضراً .. فيعبدونه من جهة الخوف، والرجاء، والخشية .. فتتعلق القلوب به من دون الله .. فيرجونه أن يُنزل في مخلوقٍ ضراً أو نفعاً .. ويخشونه على أنفسهم وأبنائهم من أن ينزل بهم ضراً .. وربما يحملهم ذلك على أن يلتمسوا رضاه بالعطايا والهدايا .. وتقديم النذر والذبح وغير ذلك من ضروب الشرك، والكفر، مما تملي عليهم الشياطين وترغبه، قال تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة: 13.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ

وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِّ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ البقرة: **102**.

قال القرطبي في التفسير: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ؛ تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحداً نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر،﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فأثبت كفرهم بتعليم السحر .. فذهب مالك إلى أن إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته؛ لأنه أمر يستسرُّ به كالزنديق، ولأن الله تعالى سمى السحرَ كفراً، بقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ ، وهو قول أحمد، وأبي ثور، وإسحاق، والشافعي، وأبي حنيفة، وروي قتل الساحر عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وأبي موسى، وقيس بن سعد، وعن سبعة من التابعين ا- هـ.

قلت: ومما يؤكد كفر الساحر أنه لا يمكن أن يتأتى له السحر إلا بممارسة الشرك والكفر؛ من استغاثة، واستعانة، واستعاذة بشياطين الجن، وتعظيمهم ورجائهم، والخوف منهم، واستهانة بكلام الله تعالى استرضاء لشياطينهم وطواغيتهم .. كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ الجن: **6**. أي طغياناً وكفراً، وقالت الشياطين: قد سِدنا الإنس، والجنّ!

قال ابن تيمية في الفتاوى 19/ 35: كثير من هذه الأمور ــ أي من أعمال السحرة ــ يكتبون فيها كلام الله بالنجاسة ــ وقد يقلبون حروف كلام الله ﷻ ــ إما دم وإما غيره، وإما بغير نجاسة، أو يكتبون غير ذلك بما يرضاه الشيطان، أو يتكلمون بذلك، فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم ا- هـ. وهذا عين الكفر البواح!

خلاصة القول: الساحر كافر مشرك، ومن يتعاطى ويتعامل معه من جهلة الناس، وفق ما تقدم ذكره أعلاه، فهو أيضاً كافر مشرك .. فالحذر، الحذر.

6- شركُ الكَهَانَة، والكاهِن: الكهانة عمل كفري؛ وصفته أن يتكهن الكاهن علم الغيب، فيدعي علم الغيب ما كان وما سيكون من شؤون الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى وحده، وهذا كفر وشرك؛ لأن علم الغيب من خصوصيات الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام: 59. وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يونس: 20. وقال تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل: 65. وقال تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ

لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأعراف: 188. فعلم الغيب من أخص خصوصيات الله تعالى وحده .. فمن ادعاه فقد ادعى الألوهية والربوبية لنفسه، وجعل من نفسه نداً لله ﷻ في أخص خصائصه .. والذي يقره أو يتابعه أو يصدقه على ادعائه هذا فقد أقر له بالألوهية، وجعل منه نداً لله عز وجل، وكفر بما أُنزل على محمد ﷺ.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس منّا من تَطيّر ولا من تُطيّر له، أو تَكهن أو تُكهّن له، أو تَسحّرَ أو تُسِحّرَ له" [80].

وقال ﷺ: "من أتى عرَّافاً ــ وهو الذي يتظاهر بمعرفة الغيب والكشف عن خباياه ــ أو كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمدٍ ﷺ" [81].

وقال ﷺ: "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد برئ مما أُنزل على محمد" [82].

هذا فيمن يصدق الكاهن فيما يتكهن به، فكيف بالكاهن نفسه الذي يتكهن علم الغيب .. لا شك أنه أولى بالكفر والبراء مما أُنزل على محمد ﷺ.

---

[80] أخرجه الطبراني وغيره، صحيح الجامع الصغير: 5435.

[81] أخرجه أحمد والحاكم، صحيح الجامع: 5939.

[82] أخرجه أحمد وغيره، صحيح الجامع: 5942.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله في رسالة له في حكم السحر والكهانة بعد أن أورد الأحاديث المذكورة أعلاه: "في هذه الأحاديث دليلاً على كفر الكاهن والساحر؛ لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، ولأنهما لا يتوصلان إلى مقصدهما إلا بخدمة الجن وعبادتهم من دون الله، وذلك كفر بالله وشرك به سبحانه، والمصدق لهم في دعواهم علم الغيب يكون مثلهم" ا- هـ. أي كافراً مثلهم.

ومن ضروب الكهانة الشائعة بين الناس؛ الضرب بالكفّ، أو الرمل، أو الفنجان .. حيث يتكهن الضارب للمضروب المتكهن له الغيبَ، وما ينتظره أو سيحصل له في المستقبل من غنى أو فقر .. أو شقاء أو سعادة!

ونحو ذلك، الباطل الذي يسمونه علم الأبراج، والكواكب، والنجوم، والحيوانات، الذي يصدّرون به بعض الجرائد والمجلات، وبعض وسائل الإعلام المرئية وغيرها .. وكثير من الناس تراهم يقبلون عليها يستفتونها؛ ليتعرفوا على غيبهم ومستقبلهم، وما ينتظرهم، فكل هذا من الكهانة التي يُحمَل على الكاهن والمتكهَّن له الوعيد الشديد الوارد ذكره أعلاه.

7- شركُ الهوى: وهو شرك متعلق بما تميل إليه النفس، وتريده، وترغبه، بغير وجه حق .. وهو نوعان: هوى بمعنى الكفر والشرك، وهوى دون ذلك.

الهوى بمعنى الشرك، والكفر الأكبر المخرج عن الملة: وذلك عندما تكون "الأنا"؛ متضخمة جداً عند صاحبها؛ فهو لا يرى الأشياء، ولا يحكم عليها إلا من خلال "الأنا"؛ من خلال هواه، وما يهوى، ويميل إليه، ويرغبه، فالحق ما يراه هواه حقّاً، والباطل ما يراه باطلاً، والحلال ما يراه حلالاً، والحرام ما يراه حراماً، يوالي من يَهوى، ويُعادي من يهوى، يحب من يهوى، ويبغض من يهوى، يحسّن ما يحسن هواه، ويقبّح ما يقبحه هواه .. ولو سألته عن دليله في جميع ما تقدم، لأجابك من فوره: هذا الذي أنا أهواه، وأريده، وأرغبه، وأميل إليه .. وأنا حر فيما أريد وأختار، وما لا أريد .. ولو قلت له: قال الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لقال لك: ولكن أنا أرى .. وأرى أنا! .. وهذا في حقيقته يتألّه هواه؛ فإلهه هواه، وهو يتأله ما يهوى، والهوى بهذا المعنى طاغوت كبير واسع الانتشار، عبَّاده كثر، بل لربما هو أكثر الآلهة والطواغيت التي تعبد من دون الله .. حتى الملحدين اللادينين، الذين يزعمون أنهم بلا دين، ولا يعبدون إلهاً، وأنهم أحرار من عقدة الدين والتدين، فهم عند التحقيق يعبدون إله "الهوى"، ويتألهون هواهم، ومتدينون بدين "الهوى"، وهم أسرى، ومنقادون له كأشد ما ينقاد عبد لعبادة طاغوت آخر .. وأشد انقياداً من عُبَّاد الأصنام للأصنام!

والهوى بهذا المعنى الوارد أعلاه، هو المعني والمراد من قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ الجاثية: 23. وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ الفرقان: 43. وقوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ الكهف: 28. وقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا﴾ الأنعام: 150. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾البقرة: 120.وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِن﴾ المؤمنون: 71 فالهوى الوارد في هذه الآيات يراد به الشرك، والكفر الأكبر المخرج عن الملة.

قال ابن تيميه في الفتاوى 8/ 359: "فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، فما هويه إلهه، فهو لا يتأله من يستحق التألّه، بل يتأله ما يهواه، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم، ومحبة عباد العجل له، وهذه محبة مع الله لا محبة لله، وهذه محبة أهل الشرك. والنفوس قد تدعي محبة الله، وتكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه وقد أشركته في الحب مع الله" ا- هـ.

ولما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسولَ اللهِ إنَّ حمدي زين، وإنَّ ذمّي شينٌ"؛ أي ما أراه زيناً وحقاً، فهو الزين وهو الحق، وما أراه شيناً

وباطلاً؛ فهو الشين والباطل، فأنا وما أهواه هو الحكَم الفصل في الأشياء، وعلى الأشياء، في الخير والشر سواء، فقالَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّم: "ذاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ" [83].

وأنت باعتقادك هذا تتخذ إلهك هواك، وتتأله وتعبد ما تهوى، وتصرف لهواك ما هو حق خالص لله عز وجل.

الهوى بمعنى الفسق أو المعصية التي هي دون الشرك، والكفر الأكبر: وهو الميل للهوى، ومتابعة الهوى في كل معصية دون الشرك على وجه الضعف؛ على غير وجه الاستحلال والاستحسان، ولو رُوجِع لاعترف بالذنب والتقصير، ورجا من الله تعالى المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَّ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ النساء: 135. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ النازعات: 41. أي نهى النفس عن المحارم التي تشتهيها، وتميل إليها، فالهوى الوارد في هذه الآيات يراد به المعصية التي هي دون الشرك، والكفر.

---

[83] أخرجه الترمذي، والنسائي، وأحمد، صحيح سنن الترمذي: 3267.

مسألة: الهوى إذا أطلق من غير إضافة ولا قيد، فيُقال مثلاً: هذا هوى .. وهذا صاحب هوى .. فيراد منه الهوى المذموم، ودرجة ونوع ذمّه بحسب التفصيل الوارد أعلاه .. والهوى لم يُطلق في القرآن الكريم إلا على وجه الذَّم.

أما إذا ذُكِر الهوى مضافاً إلى شيئ، فهو وما يُضاف إليه؛ فإن كان المضاف إليه شرّاً، فهو هوى مذموم، وإن كان المضاف إليه خيراً؛ فهو هوى ممدوح، فيُقال: هذا صاحب هوى حسن .. هواه مع الحق والعدل .. هواه مع الكتاب والسنة .. هواه مع المؤمنين والمظلومين .. فالهوى في هذا الموضع والاستخدام ممدوح، ويعني خيراً. وفي معنى الشر، يُقال: هوى سيء وخاطئ وباطل، هواه مع الباطل، والظلم، والظالمين .. ونحو ذلك، فهذا هوى مذموم، ويعني شرّاً.

8- شركُ تركِ الصلاة: الشرك عادة يأتي من جهة الفعل، والإقدام على عبادة غير الله، وكل من لا يعبد الله، فهو عابد لغيره لا محالة .. ولا يوجد شرك متفق عليه بين الصحابة، ودلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة، من جهة الترك وعدم الفعل لآحاد

الطاعات، إلا ترك الصلاة؛ فمن ترك الصلاة فقد كفر وأشرك، بنص الكتاب والسنّة، واتفاق الصَّحابة.[84].

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ التوبة: 11. دل مفهوم الآية أنهم إن لم يتوبوا من الشرك، ولم يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة لا تخلوا سبيلهم، وهم ليسوا إخوانكم في الدين، ولا تنتفي أخوة الدين إلا عن الكافر المشرك.

فإن قيل: هذا يلزم أن تكفروا تارك الزكاة ..؟

أقول: قد وردت نصوص أخرى تصرف الكفر عن تارك الزكاة إلى الكفر دون كفر، دون تارك الصلاة، والتي منها قوله ﷺ كما في صحيح مسلم وغيره: "ما مِن صاحبِ كَنزٍ لا يؤدِّي حقَّهُ إلَّا جعلَهُ اللهُ يومَ القيامةِ يُحمَى عليها في نارِ جَهَنَّمَ فتُكْوى بِها جبهتُهُ وجنبُهُ وظَهْرُهُ حتَّى يَقضيَ اللهُ تعالى بينَ عبادِهِ في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ مِمَّا تعدُّونَ ثمَّ يَرى سبيلَهُ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ". فكونه يُترك لمشيئة الله تعالى، ويرى

---

[84] أردنا ترك آحاد الأعمال والطاعات، وإلا فإن الشرك يتحقق من جهة ترك التوحيد، وعدم العمل به، ومن جهة ترك جنس العمل، وانتفاء مطلق الطاعات، ومن جهة ترك الصلاة، حتى لو أتى ببعض الطاعات الأخرى، وهو ما أردناه من حديثنا أعلاه عن ترك وتارك الصلاة.

سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار دل أنه ليس كافراً؛ إذ لو كان كافراً لما كان له سبيل إلا إلى النار، والخلود فيها، كما تقدم.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة" مسلم. وقال ﷺ: "ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة" [85] . وقال ﷺ: "بين الكفر والإيمان ترك الصلاة" [86] . وقال ﷺ: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر" [87] . وقال ﷺ: "بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك" [88] . وقال ﷺ: "لا تترك الصلاة متعمداً فإنه من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ورسوله" [89] .

---

[85] أخرجه النسائي، صحيح الترغيب: **563**.

[86] أخرجه الترمذي، صحيح الترغيب: **563**.

[87] أخرجه أحمد وغيره، صحيح الترغيب: **564**.

[88] صحيح الترغيب: **574**.

[89] أخرجه أحمد وغيره، صحيح الترغيب: **569**.

وقال ﷺ: "من تركها متعمداً فقد خرج من الملة" [90] . وقال ﷺ: "آخر ما تفقدون من دينكم الصلاة" [91] . وقال ﷺ: "آخر عرى الإسلام نقضاً الصلاة" [92] . قال الإمام أحمد: "كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه" ا- هـ.

وقال ﷺ: "ما من أمتي من أحدٍ إلا وأنا أعرفه يوم القيامة، فقالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟! قال: أرأيت لو دخلت صِيرةً ــ حظيرة تُتخذ للدواب ــ فيها خيل دُهم بُهم ـــ لونها أسود لا يُخالطها لون آخر ــ وفيها فرسٌ أغرَّ مُحجَّل ــ وهو الذي يرتفع البياض في قوائمه ــ أما كنتَ تعرفه منها؟ قال: بلى، قال: فإن أمتي يومئذٍ غُرٌّ من السجود، محجلون من الوضوء" [93] .

قلت: أين تارك الصلاة ..؟!

---

[90] قال الحافظ المنذري في الترغيب: رواه الطبري، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة بإسنادين لا بأس بهما.

[91] السلسلة الصحيحة: **1739**.

[92] صحيح الترغيب والترهيب: **572**.

[93] أخرجه أحمد، السلسلة الصحيحة: **2836**.

أفاد الحديث أن تارك الصلاة ليس من أمة محمد ﷺ، وليس ممن يتعرف عليهم النبي صلى الله عليه وسلم من بين الناس؛ إذ العلامة للتعارف يومئذٍ الصلاة، وآثار الصلاة على الوجوه والجباه.

وفي الأثر، فقد صح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: "لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة".

وعن ابن مسعود ﷺ قال: "من ترك الصلاة فلا دين له".

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: "لا إيمان لمن لا صلاة له، ولا صلاة لمن لا وضوء له".

وعن علي ﷺ قال: "من لم يصلِّ فهو كافر".

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "من لم يصل فهو كافر".

وعن حماد بن زيد، عن أيوب قال: "ترك الصلاة كفر لا يُختلف فيه".

وعن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: "كان أصحاب محمدٍ ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة". وهذه آثار كلها ثابتة بسندها، وصحيحة.

**9- الشرك الأصغر؛ الرياء**: اعلم أنَّ للعبادة ــ أو أي عمّل تعبدي ــ شرطان لا تُقبل إلا بهما معاً: أن تكون خالصةً لوجه الله تعالى، وأن تكون مشروعة؛ تتحقق فيها

صفة المتابعة للكتاب والسنة؛ فإن تحقق فيها الإخلاص دون المتابعة للسنة، ردَّت؛ وكان لها حكم البدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وإن تحققت فيها المتابعة للسنة دون الإخلاص، ردَّت، ولم تُقبل؛ إذ لا بد للشرطين معاً.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ ؛ أي موافقاً للسنة، ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ الكهف: 110. أي خالصاً لوجه تعالى.، لا سمعة ولا رياء فيه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الكهف: 7. أي أيهم أصوب، وأخلص عملاً. ونحوه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الملك: 2. أي أيُّكم أصوبُ، وأخلَصُ عملاً. وقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ الحج: 37. أي الإخلاص، والعمل الصالح الموافق للسنّة، هذا الذي يصل إلى الله، وهذا الذي يريده الله تعالى من عباده.

وفي الحديث، عن أبي أمامة الباهلي، قال: جاء رجلُ إلى النبي ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكرَ ــ أي السمعة والشهرة، وأن يتكلم عنه الناس بالمدائح

ــ ما لَه؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا شيءَ له"، ثم قال: "إن الله لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان له خالصاً وابتُغِيَ به وجهه" [94].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أوَّلَ الناسِ يُقضَى عليه يوم القيامة رجلُ استُشهد؛ فأُتي به فعرَّفَهُ نعمتَه فعرَفَها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ؛ ولكنك قاتلتَ لأن يُقال: جريء، فقد قِيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمَه، وقرأ القرآنَ، فأُتي به فعرَّفه نِعمَه فعرفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العِلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلمَ ليُقال إنك عالم، وقرأتَ القرآن ليُقال هو قارئ، فقد قِيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجههِ حتى أُلقِي في النار. ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المالِ كُلِّهِ، فأُتي به فعرَّفه نعمَه فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذَبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال: هو جواد؛ فقد قِيل، ثم أُمر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقي في النار" مسلم. هذه الأصناف الأربعة هم أشرف وأكرم وأفضل الناس بعد الأنبياء والرسل .. ولكن لَمَّا لم

---

[94] رواه أبو داود، والنسائي، صحيح سنن النسائي: **2943**.

يحققوا الإخلاص فيما خصهم الله به، ووهبهم إياه، وكان قصدهم الرياء والسمعة، وأن يُقال .. كان مصيرهم إلى النار، والعياذ بالله.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركَ الأصغر". قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ الله ﷺ؟ قال: "الرياء؛ يقول الله ﷻ إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء" (95).

وقال صلى الله عليه وسلم: "قال الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عملَ لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشركَ" (96). فلو عمل عملاً وأراد منه 99٪ لله، و 1٪ لغير الله، لرد عمله، ولم يقبله الله منه، وهو للذي تراءى له وأشركه في عمله مع الله!

(95) رواه أحمد، وغيره، صحيح الترغيب والترهيب: 29.

(96) رواه ابن ماجه وغيره، صحيح الترغيب: 31.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة؛ ليوم لا ريب فيه، نادى مُنادٍ: من كان أشركَ في عمله لله أحداً، فليطلُب ثوابَه من عنده، فإن اللهَ أغنى الشركاءِ عن الشرك" [97] . فالله طيب؛ لا يقبل إلا طيباً.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله يقول: أنا خيرُ شريكٍ؛ فمن أشرك بي أحداً فهو لشريكي. يا أيها الناس! أخلصوا الأعمالَ لله؛ فإن الله ﷻ لا يقبلُ من العملِ إلا ما خَلُصَ له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم، وليس لله منه شيء، ولا تقولوا: هذا لله ولوجوهكم، فإنه لوجوهكم، وليس لله منه شيء" [98] .

وهذا يستدعي مراقبة ومتابعة النّيَّة، وعلى مدار الوقت؛ فالرياء وكذلك الإخلاص مبعثهما النيّة، وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فبالنية الصالحة اليقظة تحول المباحات والعادات إلى طاعات وعبادات، وبالنيّة الخاطئة الساهية، تحوّل الطاعات والعبادات إلى خطايا وآثام، ولو نجوت من الإثم، فلا لك، ولا عليك، كما في الحديث الصحيح: "إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فمَن كانَتْ هِجْرَتُهُ

---

[97] رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، صحيح الترغيب: **30**.

[98] السلسلة الصحيحة: **2764**.

إلى دُنْيا يُصِيبُها، أوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ" البخاري. وفي رواية: "فمَن كانَتْ هِجرَتُه إلى اللهِ ورسولِه، فهِجرَتُه إلى اللهِ ورسولِه".

والأهم من هذا الدعاء؛ الدّعاء بأن يحفظنا الله من الشرك، ما ظهر منه وما بطن، وما عظُم منه وما دَقَّ وخفي؛ إذ من الشرك ما هو أخفى وأدق من دبيب النمل على الصخرة الصمّاء، في الليلة الظلماء، ولا عاصم لنا منه إلا باللجوء إلى الله، والاستعاذة به سبحانه من أن نشرك به شيئاً، كما في الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم فقال: "أيها الناسُ! اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أخفى من دبيبِ النَّملِ". فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتَّقيه وهو أخفى من دبيبِ النمل يا رسولَ الله؟! قال: "قولوا: اللهم إنَّا نعوذُ بك من أن نُشركَ بك شيئاً نعلمُه، ونستغفركَ لما لا نعلمه" [99]. هذا دعاء عظيم علمنا إياه النبي صلى الله عليه وسلم، فلنستمسك به، وليكن سلاحنا في مواجهة وطرد الهواجس، وأحاديث النفس، والتصورات الخاطئة، وكل ما يُستشف منه ولو من طرف خفي أنه شرك، أو قد يؤدي إلى الشرك .. فنفزع مباشرة إلى هذا الدعاء العظيم "اللهم إنَّا نعوذُ بك من أن نُشركَ بك شيئاً نعلمُه، ونستغفركَ لما لا نعلمه"، ومن استعاذ بالله؛ فقد استعاذ بعظيم .. احفظوه، وحَفّظوه.

---

[99] رواه أحمد، والطبراني، صحيح الترغيب: **33**.

مسألة: كما أن الفعل قد يكون رياءً، كذلك ترك الفعل قد يكون رياءً؛ فمن يترك الطاعات وفِعل الخيرات، حتى لا يقول الناس عنه مراءٍ، فهو مراءٍ؛ لأن باعثه على الترك مصيبة المصائب؛ حتى لا يُقال .. فعند الفعل؛ حتى يُقال، وعند ترك الفعل والطاعة؛ حتى لا يُقال .. فأين الإخلاص؟!

وترك الطاعة حتى لا يُقال؛ فهو إضافة إلى أنه رياء كما تقدم، فهو من تلبيس إبليس على المرء؛ ليحمله على ترك الطاعة .. فكلما هم بطاعة أو صدقة أو إحسان، قال له الشيطان: الناس سيقولون .. وهذا رياء .. لا تفعل .. فيمسك عن فعل الخير .. والصواب في هذه الحالة؛ أن يخزي الشيطان، ويستعيذ بالله منه، ويصحح نية الإخلاص، ولا يلتفت بعد ذلك لما سيقوله الناس .. فالناس لا بد لهم من أن يقولوا ويتكلموا .. ومن الذي يسلم من كلام الناس وأقاويلهم .. فليس من أجل كلامهم وقولهم، نفعل أو لا نفعل.

مسألة ثانية: قد يسر المرء لثناء الناس، وبخاصة منهم الصالحين، عليه خيراً .. فهل سروره هذا من الرياء، وعلامة على الرياء؟

أقول: لا؛ هذا ليس رياءً، ولا علامة على الرياء .. بل هو بشرى خير .. وعلامة على الخير، وحسن المآل والعاقبة .. إذ ما من امرئ إلا ويسر لثناء الناس عليه خيراً،

وبخاصة إذا جاء الثناء من الأعلى إلى الأدنى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ مريم: 96. ودَّاً، ومحبين يثنون عليهم خيراً في السماء والملأ الأعلى، وفي الأرض.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ اللهَّ إذا أحَبَّ عَبْداً دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللهَّ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ" مسلم.

وقد قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهَّ عليه وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عليه ــ وفي رواية: وَيُحِبُّهُ النَّاسُ عليه ــ؟ قالَ صَلَّى اللهَّ عليه وَسَلَّمَ: "تِلكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ" مسلم. وفي رواية عن أبي ذر قال: يا رسول الله، الرجلُ يعملُ العملَ للهِ، فيُحبُّهُ الناسُ عليهِ؟ ــ أي هل عليه شيئ؟ ــ قال صَلَّى اللهَّ عليه وَسَلَّمَ: "ذلك عاجلُ بشرى المؤمنِ" [100]. وقال صلى الله عليه وسلم: "أيُّما مسلمٍ يشهَدُ له أربعةٌ بخيرٍ، إلَّا أدخَله اللهُ الجنَّةَ"، قُلْنا: وثلاثةٌ؟ قال: "وثلاثةٌ"، فقُلْنا: واثنانِ؟ قال: "واثنانِ"، ولم نسأَلْه عن الواحدِ. البخاري.

---

[100] صحيح سنن ابن ماجه: 3423.

لكن هذا الثناء يأتي تبَعاً لا قصداً؛ أي لا يجوز أن يكون القصد من العمل الصالح التماس ثناء الناس على صاحب العمل بالخير .. فهذا رياء .. أمّا أن يأتي الثناء بالخير على فاعل الخير، وتأتي المودة والمحبة، والمحامد من غير قصدٍ منه لثنائهم، ولا استشراف لشيء من ذلك .. فهذا خير عظيم .. وبشرى خير، ساقها الله إليه، كما تقدم.

واعلم أن ما تناله وتستشرفه من ودٍّ وثناء ومحامد عن طريق الرياء، ينالك أضعاف أضعافه عن طريق الإخلاص، فلا تستبدل الخبيث بالطيب، ولا الذي هو أدنى بالذي هو خير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ مريم: 96. رضي من رضي، وأبى من أبى .. ورغماً عن أنف من يأبى .. هذا غير الوعد العظيم الذي ينتظر المخلص يوم القيامة، وغير الوعيد الأليم الشديد الذي ينتظر المرائي يوم القيامة .. نسأل الله تعالى السلامة، والعفو والعافية.

ومن عواقب الرياء على صاحبه في الدنيا قبل الآخرة، أن تنقلب مدائح ومحامد الناس له إلى ذمٍّ، وأن ينقلب الحامدون المادحون له إلى ذامّين وساخطين، فيُعاقب من جنس عمله، كما في الحديث: " مَن أرْضى اللهَ بسخَطِ الناس ؛ كفاه اللهُ، ومَن أسخط اللهَ برضا الناسِ؛ وكَلَه اللهُ إلى الناسِ "[101].

---

[101] صحيح الترغيب: 2250.

وفي رواية: "من التمسَ رِضا اللهِ بسخَطِ الناسِ؛ رضِيَ اللهُ عنه، وأرْضَى عنه الناس، ومن التَمس رضا الناسِ بسخَطِ الله؛ سخِط اللهُ عليه، وأسخَط عليه الناسَ".

## ألفاظ وكلمات شركيّة وكفريّة شائعة:

ألفاظ وكلمات شركيّة وكفريّة شائعة، تجري على ألسنة الناس، لا يحسبونها شيئاً، وهي شرك، وذنب عظيم، نذكر ما يستحضرنا منها، لنحْذَرَها، ونُحذّر منها.

من هذه الألفاظ والكلمات، طلب الاستغاثة والعون والمدد من الأموات، كقولهم: مدد، مدد يا فلان .. أغثنا وأعنّا يا فلان .. يا عون الغريبي أحمد يا حبيبي .. نبي الله ملاذي يوم المعاد، لا ملاذ لي سواه .. يا رسول الله أجرنا .. الغوثَ الغوثَ رسولَ الله .. يا رسولَ الله يا سندي .. يا رسول الله يا معتمدي، ويا غياثي، ويا مَلاذي، ويا رُكني، ويا كَهفي .. أنت الغياثُ لمن ضاقت مذاهبه .. وأنت خيرُ من يُرتجى في العُسر واليُسر .. مدد، مدد يا رسولَ الله .. مدد يا أهل البيت .. مدد يا رفاعي .. مدد يا جيلاني .. مدد يا أهل الله .. مدد مدد نظرة، يا صاحب الحضرة .. يا حسين .. يا زهراء .. يا فاطمة .. يا علي .. يا زينب .. يا خضر .. يا شيخ فلان .. مدد، مدد .. الغوث، الغوث .. وحياة وحق فلان .. بشرفي، وحياتي، وعِرضي .. ومُحَمَّد .. وعلي .. والحُسين؛ يريد القَسَم .. بحق فلان وبحق جاهه عليك يا رب أجب دعائي .. يا رب بهم وبآلهم عجل بالنصر وبالفرج .. ما شاء الله وشئت .. شاءت الأقدار، والظروف .. شاءت الطبيعة .. هِبة وعطاء

الطبيعة .. الطبيعة أوجدت، وخلقت، ومنحت .. مُطِرنا بالنجم أو بسبب كذا، وكذا، من دون الله .. هذا لله ولكم .. هذا لوجه الله، ولوجه فلان .. أنا في جوار الله، وجوارك .. أنا في حماية الله، وحمايتك .. أنا متوكل على الله، وعليك .. راكن على الله، وعليك .. حسبي الله، وأنت .. ليس لي أحد إلا الله، وأنت .. الله في كل مكان .. نلتحم بالله .. نتّحد بالله .. ما في الجبة إلا الله .. لو عرفوك ما عبدوك .. للأئمة مقام لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل .. حِل عن ربي .. " كلمين على دينو الله يعينو " .. زهقتني ربي .. بدي اجعل الله ما خلقك .. الدين لله، والوطن للجميع .. ما لله، لله، وما لقيصر، لقيصر .. فصل الدين والدعوة عن الدولة، والسياسة، والحياة .. الدين أفيون الشعوب .. الإسلام دين قديم ومتخلف، أحكامه لا تواكب، ولا تلبي متطلبات العصر الحديث .. الشَّعب مصدر السلطة التشريعية؛ التي يُناط بها حق التَّحليل والتَّحريم .. الحكمُ للأكثريّة .. فلان لا يُسأل عمّا يفعل، وهو فوق المساءلة .. الله، والوطن، والثورة .. الله، والوطن، والمِلك .. في سبيل الله، والوطن، والإنسانيّة .. مناداة المعشوقة " يا معبودتي " .. أعشق الله، والله معشوقي، والله يعشقني، ويعشق الصالحين .. مخاطبة المشركين والكافرين بالمؤمنين والموحدين .. أخوّة الأديان .. الإخاء الإسلامي المسِيحي .. النَّصرانية، واليهودية، والإسلام أديان سماوية توحيديّة .. الله يحب الجميع .. إذا بتحب الله وفلان إلا أعطيتني .. بحق فلان إلا أعطيتني .. مخاطبة الآخر عند الخصومة، أو لضجر منه، أو عند مناداته: يا ابن الله، يا الله .. عنده مال الله .. شفنا ناس الله، مررنا على حواجز الله؛ يريد العدد والكثرة .. لولا فلان، والجهة الفلانية لهلكنا .. ولولا فلان

والجهة الفلانية لما انتصرنا، ولا نجونا .. أو لولا الله وفلان، والجهة الفلانية، لما انتصرنا، ولما نجونا .. لعن وشتم الساعة، والأيام، والزمان .. الإشارة إلى مخلوق بأنه يضر وينفع، من دون تعليق الضر والنفع بإذن الله ومشيئته .. لا حول لله .. ما صدّقت على الله أن يحصل ــ أو لا يحصل ــ كذا، وكذا .. لا يرحم، ولا بخلّي رحمة ربنا تنزل .. الله يظلمك كما ظلمتني .. الله مع صاحب المدفع الكبير .. قَدَرٌ أحمقُ .. فهذا كله من الشرك والكفر، الذي يجري على ألسنة كثير من الناس وللأسف .. ونحو ذلك أي عبارة تستقبح ما حسّنه الله، وتستحسن ما قبحه الله .. فهو من الشرك، الذي يجب أن نجتنبه، ونحذَره، ونحذّر منه .. نسأل الله تعالى السلامة، والثبات، وحسن الختام.

فإن قيل: أين الدليل الدّال على أن تلك الألفاظ والاطلاقات الواردة أعلاه، ترقى إلى درجة الشرك والكفر؟

أقول: من قرأ هذا الكتاب، ووقف على أدلّة مسائله، يسهل عليه استخراج الدليل الدال على وجه الكفر والشرك في تلك الألفاظ والاطلاقات .. بما يغني عن إعادتها هنا من جديد.

## وقفة مع آية نختم بها هذا الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ كل هذا المنّ، والعطاء، والخير، والنّعم العظيمة مقابل شرط:

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ النور: 55. وعندما يتأخّر الموعود به عن التحقيق، نحن أمام خيارين: إما الظن بالله تعالى سوءاً، وأنه تعالى قد أخلفَ الميعاد، وهذا مُحالٌ، وهو كفر والعياذ بالله، وتكذيب لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِّ﴾ التوبة: 111. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِّ حَدِيثاً﴾ النساء: 87. ﴿وَعْدَ اللهِّ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِّ قِيلاً﴾ النساء:122. وإمَّا أن نتهم أنفسنا بالتّقصير، وأنها لم تحقّق شرط الموعود كما يجب وينبغي، وهو﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ، ولا مناص لنا إلا هذا الخيار، لنجتهد طاقتنا ووسعنا في تحقيق العبادة بمعناها العام والخاص؛ الشَّامل لجميع ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وأن نجتنب الشّركَ كل الشرك؛ ما ظهرَ منه وما بطن، ما عظُمَ منه، وما دَقّ وخفي .. ولا نتسرّع في تزكية أنفسنا على الله!

لا يجوز أن نحقق نصف الشرط، أو نقف عند نصف الشرط ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ ، من دون الشطر الآخر من الشرط ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ، كما يفعل بعض الدعاة والشيوخ المعاصرين؛ حيث ترى أحدهم يأتي على نصفِ الحقيقةِ، ويقف عند نصف الشرط؛ فتقتصرُ دعوتُه على ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللهَّ﴾ من دون ﴿وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ النحل: 36. وعلى ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ من دون ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ النور: 55. وعلى الحبّ في الله، من دون البُغضِ في الله .. وهؤلاء مدلّسون وغشّاشُون، لا يُؤتَمنون على دين الله!

ثم بعد ذلك لو تأخر النصر، ولم يتحقق الوعد، تساءل البعض منا: متى نصر الله، لماذا لم يتنزل نصر الله .. أين وعد الله للمؤمنين .. وجواب سؤالهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ آل عمران: 165. أنتم لم تأخذوا شرط النصر والتمكين كاملاً وبقوّة كما أمر الله، وإنما أخذتم بعضه، وتركتم بعضه الآخر .. أو أعرضتم عن بعضه الآخر .. والأدب يقتضي منا قبل أن نسأل عن نصر الله، ووعده لعباده المؤمنين بالتمكين، الذي لا يتخلّف أبداً، ينبغي أن يكون البحث والسؤال عن أنفسنا: هل نصرنا الله حقاً .. هل استوفينا كامل الشرط ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ حقاً، من غير كتمان، ولا نقصان لشيء منه..؟!

وعلى الجماعات، والأحزاب، والهيئات، والمجالس، التي تعمل للإسلام، ومن أجل الإسلام .. نقول لهم وبكل وضوح: شرط الله للنصر والتمكين، والاستخلاف، والأمن والأمان واضح لا لبس فيه ولا غموض ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ؛ فإن لم تحققوا في أنفسكم، ودعوتكم، وأهدافكم هذا الشرط بركنيه الآنفي الذكر، لا تنشدوا نصراً، ولا تمكيناً، ولا استخلافاً، ولا أمناً .. ولا ودّاً .. ولا تقولوا ما يقوله منشدكم: "متى ستهب الذئاب ما وعدتنا!!"، وهيئوا أنفسكم على أن تتيهوا في الأرض أمماً وأحزاباً، متفرقين ومتناحرين، ومتباغضين، تتخطفكم الأمم، والبحار، والمحيطات، كما

تاهت من قبل بنو إسرائيل في الأرض، لّما عصوا نبيهم .. فليست لهم كل مرة، ولكم كل حلوة!

نسأل الله تعالى أن يلهمنا الرشد، والصلاح، وأن يأخذ بأيدينا لما يحبه ويرضاه .. وأن لا يكلنا لأنفسنا طرفة عين .. وأن يرينا الحقَّ حقاً ويرزقنا اتباعه، والباطلَ باطلاً، ويرزقنا اجتنابه .. وأن يجعلنا ممن يحققون في أنفسهم شرطه للنصر والتمكين، والاستخلاف، ويسعون إلى تحقيقه ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ، إنه تعالى سميع قريب مجيب، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد المنعم مصطفى حليمة — 17/ 1/ 1442 هـ

"أبو بصير الطرطوسي" — 5/ 9/ 2020

**www.abubaseer.bizland.com**

**www.tartosi.blogspot.com**

# الفهرس


مقدمة: ..... 3

معنى الشّرك ..... 7

الشركُ في الرُّبوبيّة ..... 8

الشركُ في الألوهيّة ..... 11

الاستدلالُ ببطلان الشّرك في الربوبيّة على بطلان الشّرك في الألوهيّة ..... 12

الشرك في الأسماء والصّفات ..... 13

معنى الطاغوت ..... 15

صِفةُ الكفر بالطاغوت ..... 17

معنى العِبادة ..... 17

التوحيد يقوم على ركنين ..... 19

التوحيد بركنيه دعوة جميع الأنبياء والرسل ..... 21

شهادةُ التّوحيد تتضمن ركني التوحيد ..... 22

العلة في تقديم جانب النفي في شهادة التوحيد ..... 22

موقف المشركين على مدار التاريخ من شهادة التوحيد ..... 23

خطورة الشرك ..... 28
* أنَّ الشِّركَ ظُلمٌ عظيم ..... 28
* الشركُ ظُلمٌ عظيمٌ بحقِّ الله تعالى ..... 28
* وهو ظلمٌ عظيم بحقِّ الإنسان ذاته..... 29
* أنه يمنع من قبول الأعمال، ويُحبط ما سبقه من العمل الصالح ..... 33
*أن الله تعالى لا يغفر الشرك..... 35
فالعبرة بالموافاة وبما يختم به على المرء ..... 37
*أن مَن مات على الشّرك يُخلّد في نار جهنم أبداً ..... 39
مسألة: الدعاء بالرحمة لمن يموت على الكفر والشرك..... 41
*أن المشرك لا تناله شفاعة الشّافعين..... 42
العِلمُ والتفقه بالشرك: ..... 44
أقسام الشرك: ينقسم الشرك إلى قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر..... 46
الشرك الأكبر..... 46
الشرك الأصغر ..... 53
النِّفاق ..... 57

النِّفاق الأكبر ..... 57
النّفاق الأصغر ..... 58
مسألة ..... 60
أنواع الشرك ..... 62
1- شرك الطاعة ..... 62
من هذه الصور؛ طاعة الحكام والأمراء ..... 71
ومنها: طاعة الشيوخ، والعلماء ..... 78
ومنها: طاعةُ الآباء ..... 80
مسألة ..... 82
2- شرك المحبّة ..... 83
موافقة المحبوب في البغض ..... 89
العِلّة في أن ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ..... 92
مسألة ..... 93
حُب الأشياء ثلاث درجات ..... 95
حُبٌّ مُباح ..... 95

وحبٌّ مكروه ومحرّم ..... 96
وحبٌّ شركي..... 96
صور نُكابِدُها ونُعايشها من الموالاة، تُصرَف لغير الله ..... 96
منها: طغاة الحكم..... 97
ومنها: الحزب، وزعيم الحزب ..... 97
ومنها: التعصب للمذهب الفقهي وإمامه ..... 99
ومنها: القومية.....101
ومنها: الوطنية، والولاء الوطني .....103
ومنها: القبليّة.....106
ومنها: الإنسانيّة .....107
ومنها: المال، والمناصب الوظيفيّة.....110
ومنها: الخمر، والمخدرات .....113
ومنها: الخِلّة والأخِلَّاء.....115
مسائل متفرقة تتعلق بشرك المحبّة.....119
المسألة الأولى .....119

المسألة الثانية ..... 120
الدليل على الموالاة الكبرى ..... 120
الدليل على الموالاة الصغرى ..... 121
المسألة الثالثة ..... 123
المسألة الرابعة: ..... 124
المسألة الخامسة ..... 125
المسألة السادسة ..... 126
3- شرك التَّحاكم والتَّشريع ..... 127
الحاكم المشرّع ..... 127
مسألة ..... 130
مسألة ثانية: التَّحاكم إلى الأكثريَّة ..... 132
4- شركُ الدّعاء ..... 134
مسألة: ليس بين الله تعالى وبين عباده وسطاء، ولا شفعاء ..... 138
مسألة ثانيّة ..... 141
5- شركُ السِّحر، والسَّاحر ..... 143

6- شركُ الكَهَانَة، والكاهِن ..... 146

7- شركُ الهوى ..... 148

الهوى بمعنى الشرك، والكفر الأكبر المخرج عن الملة..... 149

الهوى بمعنى الفسق أو المعصية التي هي دون الشرك، والكفر الأكبر ..... 151

مسألة ..... 152

8- شركُ تركِ الصلاة ..... 152

9- الشرك الأصغر؛ الرياء ..... 156

مسألة ..... 162

مسألة ثانية ..... 162

**ألفاظ وكلمات شركيّة وكفريّة شائعة** ..... 165

وقفة مع آية نختم بها هذا الكتاب..... 167

الفهرس ..... 171